غداً تزورنا الخيول

رواية



صالح السنوسي

مجلس الثقافة العام

غدًا تزورنا الخيول

إصدارات

مجلس الثقافة العام

غدًا تزورنا الخيول

رواية

صالح السنوسي

الناشر

مجلس الثقافة العام

اســــم الكـتاب	غداً تزورنا الخيول (روايــة)
اســــم المؤلــف	صالح السنوسي
سنــة النـــشــر	2010 م
رقـــم الإيـــداع	324 / 2008 م (دار الكتب الوطنية)
الـترقيم الـدولي	978 - 9959 - 38 - 841 - 4
تـصميم الغـلاف	علي العباني
لــوحــة الغلاف	نزار الطرابلسي
التنفـيذ الفنـــي	دار قـــباء الـحديثة - القاهرة

الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى

إصدارات

مجلس الثقافة العام

المقر الرئيس - مجمع المؤتمرات - سرت

هاتف 002185468622 - بريد مصور 002185473161

فــرع طرابلس - عمارة الواحات - شارع عمر المختار

هاتف 0021821444989 4 - بريد مصور 00218213335388

ص ب 2764 طرابلس

فــرع بنغــازي - الفويهات الغربية - الطريق الدائري الثاني

هاتف 00218612241577 - 00218612241578

بريد مصور 00218612241576 - ص ب 9351 بنغازي

بريد إلكتروني - LCC2_2005@Yahoo.ca

غدًا تزورنا الخيول

استدار الاثنان عائدين إلى مقهى " كافيتيريا شيل " وهو مطعم ومقهى صغير يقع في شارع "غابريال" المواجه للجامعة، ومعظم زبائنه من الطلبة نظرا لقربه من المدينة الجامعية المعزولة نسبيا عن المدينة، حيث تتوقف حركة الحافلات في الساعة الثامنة والنصف مساءً. فيظل هذا المقهى مفتوحا حتى ساعة متأخرة من الليل.

كان المقهى غاصاً بروّاده وبعدد كبير من الطلبة العرب الذين ينتشرون في شكل جماعات حسب أقطارهم أو حسب معتقداتهم السياسية.

وعندما جلس أنيس ومنال في ناحية من المقهى استطاعا أن يميزا في الجهة المقابلة كلا من هشام خلف الذي يعد أكثر الطلبة العرب نشاطا في جامعة "ديجون" وخالد صديقه الذي لا يفارقه أبداً .

بينما شاهدا في أقصى زاوية المقهى عصمت شريف وهو

شخصية غامضة خرجت من مصر منذ سبع سنوات، يقدم نفسه دائما على أنه طالب بكلية الطب ويعمل حارسا ليليا في أحد الفنادق. ولكن مظهره وطريقة حياته التي لا تخلو من بذخ أحيانا يثيران الشكوك في وجود مصادر مالية أخرى له. وهو لا يخلو من ذكاء وجاذبية.

وبجانبه جلس " قارو" وهذا ليس اسمه الحقيقي، ولكن تعود الجميع على مناداته بهذا الاسم. ولا يعرف له أحد جنسية ثابتة فأحيانا سوري وأحيانا أخرى لبناني. وقد مضت عليه هو أيضا عدة سنوات في مدينة "ديجون" لا يفعل شيئا، مما يثير دهشة الكثيرين في كيفية تمكنه من العيش واستطاعته تجديد إقامته كل عام، رغم أنه ليس طالبا ولا عاملا، الأمر الذي يعد خرقا للقانون الفرنسي. ولهذا فهو أيضا شخصية مشكوك فيها. ومع هذا فإن لديه علاقات مع كل الطلبة العرب بمختلف اتجاهاتهم، نظراً لعدم ارتباطه بأي تيار سياسي. إذا لا يعدو أن يكون شخصية اجتماعية مرحة غير مسيسة، أو هكذا يبدو الجميع.

وتوسطت هؤلاء "ساندرا ديفيد" وهي فتاة ذات علاقات مع عدد كبير من الطلبة العرب. تنتمي إلى أسرة فرنسية من

أصل يهودي، ميسورة الحال، تسكن في إحدى ضواحي المدينة.

كان أنيس كامل منشغلا يرد التحية على هذا الجالس هنا، وبالحديث العابر مع ذاك الداخل، عندما قاطعته منال بصوت منخفض وهي تهمس في إذنه:

- لماذا تحدق فينا هذه المرأة هكذا؟.

كانت منال تعني بسؤالها " ساندرا ديفيد "؛ فأخذ أنيس يدها بين يديه وهو يقول لها محاولا صرف انتباهها عن هذا الموضوع:

- إن امرأة مثلك، عندما تجلس في أي مكان، تثير بالضرورة غيرة النساء الموجودات.

كان يسيطر على المكان جو من المرح يختلط فيه الغناء بالصياح والتعليقات وبلغات متعددة، وأخذ أفراد مجموعة " قارو" المكونة من عصمت شريف و" قارو" و" ساندرا ديفيد" يغنون كعادتهم مازجين بين الأغاني العربية والفرنسية.

قال خالد أنور لهشام خلف وهو ينظر إلى أنيس كامل:

- يقال إن من يحكم عليه بالإعدام وينجو منه، يوهب حياة أطول ويبتسم له الحظ.

فرد هشام خلف:

- " شوبدك منو، اترك الزلمي في حالو".

فقال خالد:

- "أهو بس حكي".

قال هشام بنفس لهجة الاعتراض:

- لا تتكلم عن شخص لا تعرف عنه إلا القليل.

وهنا قال خالد:

- " شو ما بنعرف عنو شئ" اعـرف انـه محكـوم عليـه بالإعدام، وانه كان في ظفار ثم تركهـا بعـد أن خمـدت حركة الثورة هناك.

وانفجر هشام خلف ضاحكا وهو يقول:

- " يا خوانا" من أين لكم هذه المعلومات؟

فأجاب خالد أنور:

- عصمت شريف و" قارو" .

فقال هشام خلف وكان يعتقد أنه هو ضمن قليلـــين جــدا يعرفون هذا عن أنيس:

ـ ومن أين لهما هذه المعلومات ؟

فأجاب خالد أنور:

ـ إن مثل هذه المعلومات لا تعد شيئا بالنسبة إليهما.

ثم أضاف خالد أنور الذي يعد أطروحة دكتوراه في العلوم بجامعة "ديجون"، والذي سبق له أن عمل ضابط احتياط بمدفعية الجيش السوري إبان حرب أكتوبر:

ـ على كل حال، إنني أحترم أنيسا لأجل ذلك.

فقال هشام خلف محاولاً قطع الحديث عن صديقه الـــذي ما يزال في أذنه طنين من بقايا هدير مدافع أكتوبر:

ـ طبعا .. طبعا ..

قال خالد أنور بعد لحظة صمت:

ـ هناك احتمال تدخل سوري في لبنان.

فرد هشام خلف:

ـ "عظيم يا ريت" ولكنه لا تسمه تدخلا.

فقال خالد:

- وإسرائيل؟

فرد هشام:

- "ما تسترجلش " إسرائيل لا تستطيع التدخل.

ورغم أن خالد أنور لم يبد عليه الاقتناع برأي صديقه إلا أنه اكتفى بالقول:

- إنها مخاطرة كثيرة العواقب.

قال هشام خلف الذي يعد هو الآخر أطروحة دكتوراه في الأدب الفرنسي:

- إذا كنا لا نستطيع القبول حتى بهذه المخاطرة فكيف لنا أن نحلم بتوحيد الأمة العربية.

وأخذ هشام خلف ينظر إلى كأس الجعة بتمعن ويصغي إلى طرقات كعوب جنود الشام زاحفة عبر بلاد العرب.

تعال يا معاوية أسقك كأسا، أعرف أنك لم تكن ميالا للشراب إلى هذا الحد. لأنك لم تعش هذه المحنة، كما أن هموم تثبيت الخلافة في بني أمية لم تترك لك وقتا للتفكير في

أمور أخرى. ولكن لا عليك، اقترب من هذه الناحية. هــؤلاء كلهم أحفادك حتى وإن كان معظمهم نــاكرين لجميــل بنــي أمية!. خذ هذا المقعد، أعرف أنه عال ولم يكن معروفا فــي زمانكم، ولكنه سيتيح لك رؤيــة رؤوس الانفــصاليين التــي عادت بها كتائب التوحيد وهي معلقة في ساحات عاصمة بني أمية. آه ما أكثر الرؤوس بين هذا الخليج والمحيط التــي أود أن أراها معلقة هناك.

لقد ظهر في عهدكم بعض الانفصاليين، أما نحن فلــدينا منهم آلاف.

وفي هذه اللحظة قطع خالد أنور تخيلات هــشام خلــف، وكأنه كان يستمع إلى الحوار الجاري داخل نفس هشام.

قال خالد:

- لقد أطلت الصمت.

وقبل أن يرد هشام قطع حديث الجميع دخــول ممــدوح شعراوي وهو يقول بصوت متهدج:

- لقد طردونا من مقهى "الكونكورد".

فقال هشام:

- هل أبلغتم الشرطة؟

فرد ممدوح بسخرية:

- لقد طلبت أن نأتي بشاهد يثبت الواقعة، وأنت تعرف أن كثيرين من الفرنسيين لا يشهدون على بعضهم لصالح عربي.

كان ممدوح غاضبا وهو يردد:

- لقد قالوا لنا إن المقهى لا يستقبل العرب.

وما إن شاهد أنيس ومنال جالسين في الناحية الأخرى حتى اتجه نحوهما، فهو تربطه بهما صداقة خاصة. واقترب منهما غاضبا هذه المرة على غير عادته في إطلاق النكت باللهجة المصرية وكلمات الدلال لمنال، وأخذ ممدوح شعراوي يعيد ما حدث، بينما كانت منال غاضبه له، وتطييب خاطره ببعض الكلمات، وبدأ أنيس غير متأثر لهذا فجذب مقعدا وطلب من ممدوح الجلوس بجانبه، غير أن ممدوحا الصعيدي النشأة ظل يتوعد بالثأر لنفسه. قال أنيس وهو يهدئه بطريقته الخاصة:

- ليس هناك أسوأ من مشهد رجل يغالب عبراته، فقال ممدوح وهو يحاول أن يتمالك نفسه:

- إنه الإحساس بالقهر وليس إحساسا بالخوف.

فقال أنيس - وهو يعرف أن ممدوحا كان "نقيب احتياط" وشارك في حرب أكتوبر قائد فصيل مدرعات، ثم سرح بعد توقيع اتفاقية سيناء فجاء إلى "ديجون" لاستكمال دراسته العليا في الاقتصاد- :

- أعرف أنك لست خائفا.

فقال ممدوح:

- لو كنت أعلم أن موقف الشرطة سيكون سلبيا إلى هذا الحد ما كنت ذهبت إليهم، ولكنت تصرفت تصرفا فرديا بما يمليه على الموقف.

قال أنيس:

- وهل تعتقد أن هذا سيحل المشكلة؟

فرد ممدوح:

- أنتقم لحقي على الأقل!

فقال أنيس:

- ولكنه سيظل رد فعل فـردي مباشـر لا يحـل القـضية الأصلية، لأن العنصرية مشكلة حضارة، وحلهـا يوجـد هناك في بلاد العرب.

وأطرق ممدوح دون أن يعلق بشئ . بينما أخذ " قـارو" يغني بعد أن سمع مجمل ما حدث غير عابئ بالتفاصيل، وقاطعه عصمت شريف قائلا:

- اللوم يقع على تلك الأوضاع التي أوصلتنا إلى ما نحن فيه الآن.

فقال " قارو" ساخرا وهو يقطع غناءه:

- ماذا كنت ستفعل لو كنت رئيسا؟.

فأجاب عصمت:

- أستقيل و"سيب الناس في حالها " .

فقال " قارو" وهو يضع كأس الجعة علـى الطاولـة ويهب واقفا:

- لا لن نتركك تستقيل. فلمن تتركنا يا من لا يجود الدهر بمثله. غدا نسوق الناس إلى الشوارع لتتظاهر مطالبة بعودتك!.

قال عصمت شريف بلهجة هادئة رزينة وهذا نادرا ما يحدث من جانبه:

- تعرف يا " قارو" أنت تصلح وزير إعلام "كويس" .

فرد " قارو":

- ألا تعرف أنني قد حاولت دراسة الصحافة في بيروت.

فقال عصمت هذه المرة ساخرا:

- " ده اللي كان ناقص، قارو صحفي ".

فوضع قارو سيجارته في المنفضة متهيئا للحديث بجد: وما الذي تراه ينقصني، كل الصحافيين، ثم صمت قارو وهو يتناول جرعة من كأس الجعة الثامن تقريبا.

كان النقاش قد علا داخل المقهى بين مجموعات الطلبة، منهم من يطالب بتوزيع منشور للتنديد بما حدث لممدوح، وآخرون يطالبون بالدعوة لاجتماع مع اتحادات الطلبة

الأخرى للقيام بمظاهرة، غير أن عصمت شريف لـم يعـر انتباها لكل هذا. بل استمر في حديثه مع قارو قائلا:

- لنفترض أنك صحفي فما هو السؤال الذي تتمنى طرحه على رئيس عربي ؟

وهنا صمت قارو لحظة ثم انفجر ضاحكا بينما ظل عصمت ينتظر الإجابة، ولكن قارو لم يتوقف عن الضحك. فكلما هدأ انفجر مرة أخرى دون أن يستطيع أن يقول ما يريد قوله.

فقال عصمت شريف وهو ينخزه في كتفه:

- " مالك اتجننت؟ خلاص ".

فرد قارو وهو يغالب ضحكه بينما أخذ كأس الجعة يرتعد في يده وينسكب بعضه على الطاولة:

- الحقيقة أن السؤال محرج.

فقال عصمت:

- سؤالي؟.

- لا. سؤالي أنا إلى الرئيس.

- عم ستسأله ؟

فأخذ قارو يمسح عينيه الدامعتين من شدة الضحك، ثم مر بيده على رأسه وأصلح من هندامه بطريقة كوميدية، وبسط يديه إلى الأمام، وقال بوقار مخاطبا الفراغ الذي أمامه:

- سيدي الرئيس العبقري الملهم السرمدي.

وهنا قاطعة عصمت قائلا:

- لماذا كل هذه الألقاب والصفات؟

فرد قارو:

- هذا ليس ذنبي فأنت تعرف هذا !.

فقال عصمت وهو يزفر:

- لديك حق.

ثم أضاف وهو يطفئ سيجارته:

- ومع هذا فإن هناك مسألة لم أستطيع فهمها. وهي أنه رغم كل تلك العبقريات وذلك الإلهام فإننا لم نخرج من حالة التخلف ولم نكسب معركة واحدة منذ أن عرفناهم !.

وصمت عصمت برهة ثم انفجر بغضب هذه المرة: "غلب أيه ده " ورفع عصمت رأسه وهو يقول لقارو:

- استمر في سؤالك.

فقال قارو وهو يعود إلى وضعه السابق:

- سيدي الرئيس. متى وجدت نفسك للمرة الأولى مختليا..... ثم انفجر مرة أخرى ضاحكا دون أن يستطيع إكمال جملته، ولم يستطع عصمت أن يتمالك نفسه هو أيضا من الضحك وقد فهم ما يعنيه قارو، ثم قال مقهقها:

- "الله يخرب بيتك" ولماذا هذا السؤال بالذات.

فقال قارو:

- إذا أجابني بأمانه فلن أسأله أي سؤال آخر.

قال عصمت وهو لا يزال يضحك:

- اطمئن "موش حا يجاوبك بأمانة" !

وانقطع الحوار بين الاثنين، فاستدار قارو نحو "ساندرا ديفيد" وأخذ يثرثر معها. بينما انكفأ عصمت شريف على كأسه فأخذت تتراءى له من خلاله قاهرة كبيرة مترامية الأطراف،

شوارعها فسيحة تحيط بها الحدائق وتزينها المصابيح، تمتد فوقها مئات الآلاف من خطوط الهاتف، وتحتها مئات أنفاق " المترو"، وتربطها شبكات معقدة من خطوط السكة الحديدية التي تهدر فوقها مئات القطارات القادمة من العواصم الإقليمية، تنتصب على آلاف الأميال منها في أقصى صحاري العرب مراكز سفن الفضاء والأقمار الصناعية.

غارقة في بحر من السواح القادمين كل صيف إلى عاصمة الولايات المتحدة العربية لمتابعة دورات دراسية لتعلم العربية كما يحدث في لندن وباريس. طوفان بشري من كل الجنسيات فيه من الشقراوات وذوات العيون الخضر ما لا يحصى لهن عدد. يجرين خلفه بالعشرات ويطاردنه في محطات " المترو" والمراقص لكي يتعلمن منه النطق السليم للغة الضاد. بينهن فرنسيات كثيرات يتحين الفرصة للحديث معه فلا يهربن بمجرد جلوسه بالقرب منهن كما يحدث معه الآن.

وعندما يأتي سائحا إلى هنا لن يجد المقاهي والمراقص مقفلة في وجهه. بل سيجد العاملين فيها يبتسمون له ويحاولون الحديث معه بعربية "مكسرة" يريدون أن يتعلموها على غرار حديثهم بلغة أنجليزية ركيكة مع الأمريكيين لكسب صداقتهم!.

بدأ المقهى يخيم عليه السكون فقد تعــب الــرواد وملــوا الثرثرة، أما أنيس كامل فلم يكن قد انتهى من نقاشه مع ممدوح شعراوي عندما قطعته عليهما منال قائلة بلهجتها الخلــيط بــين الشامية واللبنانية وهي تتثاءب:

- " يا للا يا أنيس أنا تعبانة وبدي أرجع".

فنهض ممدوح شعراوي وهو يشد على يدها قائلا:

- " ليلة سعيدة يا مليحة العرب" . هذا هو الاسم الذي أطلقه ممدوح على منال الفلسطينية الأصــل المميــزة بجمالهــا العربي الشرقي بين كل طالبات جامعة " ديجــون" فغــدا الجميع يناديها بهذا اللقب.

وجال ممدوح بناظريه خلال المقهــى فوجــد أن معظــم الوجوه قد غادرت ولم يتبق إلا عدد قليل، فالتفت نحو أنيس وقد عادت إليه روح الدعابة التي لا تبدو ظاهرة على تقاطيع وجهه الصارمة وشاربه الكثيف - بالنسبة لمن يلتقي به للمرة الأولى.

قال ممدوح شعراوي مشيرا بيده إلى مجموعة من المقاعد الخالية:

- " كله تمام. العالم كله نام" .

ثم أضاف وهو يستدير مداعبا أنيسا كعادته:

- "سعيدة يا حضرة " ! .

عندما خرج أنيس كامل ومنال من المقهى كان سكون النصف الثاني من الليل يخيم على منطقة الحي الجامعي وكان شارع " غابريال" - الكبير الذي تحيط به الأشجار، والممتد من الجامعة حتى قلب مدينة "ديجون" - خاليا تماما من الحركة، بينما أخذت رؤوس الأشجار تهتز قليلا تحت المصابيح بفعل نسيم ليل الصيف. وبعد أن عبرا الشارع ودخلا الحرم الجامعي عبر المنطقة التي يطلق عليها الطلبة السهل الأخضر. قالت منال وهي تسمع وقع أقدامها تخب في العشب:

- لا أستطيع أن أقاوم رغبة الجلوس على العشب. تعال يا أنيس نجلس هنا قليلا.

وتذكر أنيس ما قالته منال قبل قليل في المقهى، فقال مقلدا صوتها:

- ألم تقولي " أنا تعبانة يا أنيس وبدي أرجع " فانفجرت منال ضاحكة وهي تلتصق به بينما ظل هو صامتا يستمع إلى

كركرة ضحكتها الأنثوية الساحرة وأنفاسها الدافئة تلفح رقبته عبر خصلات شعرها الطويل .

قال وهو يزيح خصلة شعرها التي غطت فمه:

- ألا ترين الطل. كيف يمكنك الجلوس على هذا العشب المبتل؟

فهزت منال كتفها وهي تقول محاولة مناكفته وبلهجتها التي لا يمل سماعها أنيس:

- "ولو . أيش بيصير" .

وبعد أن توقفا قليلا وظلا غائبين عما يجري حولهما. استأنفا سيرهما وهما يستعيدان أنفاسهما بهدوء. وتناهى إلى سمعهما صوت " كلود رينيه" البوهيمي الفرنسي الذي يعيش حياة بوهيمية في الحي الجامعي منذ عدة سنوات لم يعبر خلالها ولو مرة واحدة شارع الجامعة إلى الجهة المقابلة. بل يقضي معظم يومه نائما في بعض الخرائب المتناثرة في السهل الأخضر، ويقوم الليل يغني متجولا بين مقهى "شيل" و"لاكروبول" برفقة زجاجة النبيذ.

كان يغني نفس الأغنية التي سمعها أنيس يرددها منذ

ثلاث سنوات، بينما ساعد الصمت والنسيم الخفيف على إيصال صوته إليهما رغم بعده عنهما وهو يردد المقطع المفضل لديه:

- لقد نسيت أن أبكي هذه الليلة أيضا.

(2)

ربما كان الربع الأول من النصف الأخير قد ولى من أحد أيام حزيران الحارة، والنقاش مازال محتدما بين أنيس كامل وطلال سعيد. كانا يجلسان على الأرض في ظل إحدى الأشجار الكبيرة في الحديقة التي تفصل بين مبنى كليتي الآداب والحقوق ومكتبة الجامعة.

قال طلال سعيد في معرض حديثه:

- لقد كان الموقف صعبا. إما الوحدة والشرطة العسكرية والمخابرات أو لا وحدة.

فعلق أنيس كامل ضاحكا:

- فتم اختيار اللاوحدة.

- حتى هذه لم يخترها الشعب. بل اختارتها فئة صغيرة تضررت مصالحها.

فتساءل أنيس:

- وأين كنتم في تلك اللحظة التاريخية الحاسمة؟

وابتسم طلال سعيد ابتسامة باهتة اختفت وراءها مشاعر متصارعة في نفس الرجل، ثم قال وهو يرسم بيده في الهواء حركة دوران المفتاح في القفل:

- كنا في السجن.

وعندما وجد طلال أنيس منصتا لا يعلق، استمر في روايته للأحداث:

- عندما قامت الوحدة كانت قد تبقت لي بعض المدة من الخدمة العسكرية. وتم دمج الجيشين. وجاء الضباط المصريون فأخذوا يمارسون سلطات أوسع من زملائهم السوريين، كنت خلال وجودي في المعسكر أبحث بين هؤلاء جميعا عن ضابط الجمهورية العربية المتحدة . ولكن أقول لك بكل الأمانة وبكل أسف إنني لم أجده في معسكري. فلقد كان الضباط في معسكري نوعين:

ضابط مصري حتى أخمص قدميه غير مسيس ، ويعتقد أنه إنسان متفوق أتى لكي يعلم مجموعة أقل منه فهما وذكاءً .

وضابط سوري كان خيالياً في وحدويته، ثم صدمته عيوب الوحدة فأخفت عنه محاسنها ومزاياها، ورغم أنني كنت مسيسا يؤمن بالوحدة، وتركت التنظيم من أجلها لاختلافي مع رفاقي في تحليل الوحدة إلا أنني كنت أحيانا أثور في داخل نفسي أمام تصرفات سيئة كهذه. فما بالك بضابط سوري لم يعرف في حياته أي انتماء تنظيمي أو فكري، وكل نشاطاته السياسية هو التظاهر من أجل الوحدة عندما كان طالبا. ثم دخل الجيش بعد الثانوية العامة ليجد نفسه - في غالب الأحيان- أمام ضابط يتصرف على أساس أنه مصري لا غير، وأنه أتي ليعلم مجموعة من الضباط والجنود السوريين الذين لا يخلون من جهالة ! .

وقاطعه أنيس قائلا:

- أعرف أن هذا قد يكون حدثًا من جانب بعض الضباط الذين ليس لديهم وعي سياسي، وأنا أتوقع أن يحدث حتى أسوأ من هذا عند بداية تجربة كهذه محفوفة بظروف كتلك

الظروف. ولكن ألا تعتقد أنه كان بالإمكان اختفــاء هــذه الظواهر وغيرها مع استمرار الزمن والوحدة ؟.

أخرج طلال سعيد سيجارة ربما كانت العاشرة منذ بدايــة النقاش، ثم أشعلها وسحب نفساً طويلاً وترك الــدخان ينــساب ببطء خارجاً من منخريه كعادة أي مدمن. قال بعدها وهو يعكف أصابعه الثلاثة تاركاً أصبعين فقط يحتضنان السيجارة: نعم قال طلال وهو يهز أصبعيه القابضين على السيجارة وكأنه يتوعد:

- أقول هذا من منطلق وحدوي متفائل ومتحمس.

وانفجر أنيس ضاحكا ومعلقا في آن واحد كعادته:

- وإذا كنت متفرجا غير متحمس للمشهد فماذا ترى؟ .

فأجاب طلال سعيد دون أن يشارك أنيس الضحك:

- أمام ذلك المشهد بالذات لم يكن بوســع أي إنــسان إلا أن يكون متحمسا أو مضادا.

قال أنيس وهو يسند رأسه إلى جذع الشجرة الكبيرة التي يجلسان تحتها:

- ولكن الآن ها هي زالت هذه الظواهر والتصرفات بزوال سببها فماذا تبقى ؟.

لا شيء. قال طلال وهو يطفئ عقب سيجارته في العشب ثم ينظر إلى إحدى الطالبات المارات بجانبهما وهو يقول: "يحرق حريشها قديش حلوة"، ثم واصل حديثه في موضوعه السابق: إن وجود هذه الظواهر مع بقاء الوحدة كان أفضل من زوالها بزوال الوحدة. وهذا الذي جعلني أخرج من أحد سجون الوحدة لأشارك في مظاهرة ضد الانفصال. قال أنيس محاولا دفعه للحديث:

- لا أظنك مكثت طويلا في الجيش بعد قيام الوحدة؟. وخلع طلال سعيد نظارته الطبية وظل ممسكا بأحد طرفيها في يده. فظهرت فوق أرنبة أنفه نقطة حمراء من أثر استخدامه المستمر لهذه النظارة. رغم أن المظهر الخارجي لعينيه لا يدل على ضعف فيهما. فهما لوزيتان واسعتان يظللهما حاجبان كثيفان. ولم يكن على تقاطيع وجهه الممتلئ ولا شعره الأسود القصير أي أثر للسنين الأربعين التي يعترف بها هو شخصيا وتثبتها بطاقته الشخصية الصادرة من بلدية حلب.

قال وهو يعيد النظارة إلى عينيه ويحكم تعديلها:

- كانت المدة بضعة أشهر. خرجت بعدها وبدأت تدريس

اللغة الفرنسية في مدرسة حلب الثانوية. كانت حملات الاعتقال جارية، ولكنني حتى تلك اللحظة كنت آمل أن تتغير الأحداث. وربما كان هذا راجعا لقناعتي بصدق وحدودية عبد الناصر من ناحية، ومن ناحية أخرى فقد كان واضحا أن الوحدة لن تستمر إذا سارت الأمور في اتجاه كهذا.

وتم نقلي بعد قليل من حلب إلى دمشق، كنت أحس بالتهمة تحوم فوق رأسي. ولم يكن بإمكاني دحضها. لأنها لم توجه إلي رسميا.

وفي دمشق أحسست بأنني قد خطوت خطوة أخرى نحو الذي أخشاه وشعرت بأن الحجر المعلق فوق رأسي قد زاد حجمه واقترب مني كثيرا. وفجأة في صباح أحد أيام أذار بينما كنت أستعد للذهاب إلى المدرسة، فقد كان على ذلك اليوم - وما أزال أذكر هذا جيدا - أن أعطي الطلبة درس الفعل الماضي التام في الفرنسي، سمعت طرقا على الباب فأخذت حقيبتي وخرجت فوجدت شابين بثياب مدنية لم يسبق لي معرفتهما. فوضعت لا شعوريا يدي فوق رأسي وتحسست شعري، فتأكدت لحظتها أن الحجر قد سقط. وقدم لي أحدهما نفسه بتهذيب مبالغ

فيه وبطاقته مفتوحة في يده، بأنه الرائد عدنان من المخابرات العامة. ثم طلب مني أن أرافقهما، فقلت لهما:

- أيمكن لي أن أعيد الحقيبة إلى البيت .

فقال لي الرائد عدنان:

- لا داعي لهذا. فالأمر لا يتعدى أسئلة قليلة، ثم تذهب من هناك إلى مدرستك !

فنظرت إليه مبتسما. وعرف بكل ما كان يجري في ذهني في تلك اللحظة. قلت لهما ونحن داخل السيارة محاولا رفع الكلفة:

- لو تأخرتما بضع دقائق لما وجدتماني.

فرد الرائد عدنان:

- نحن لا نملك إلا أن نأتي في الموعد. لأن تأخير ثانية واحدة كفيل بوضع أمن دولة بكاملها في مهب الريح.

وتأكدت لحظتها أن الأمر جاد وخطير، وأن حجم الحجر أكبر مما كان يتراءى لي في السابق. كانت السيارة تقطع بنا شوارع دمشق مسرعة خارجة بنا نحو الضواحي. كانت الشمس ساطعة والوقت ربيعا.

وبعد استجواب قصير في ذلك المبنى الصغير. تركت حقيبتي وساعة يدي ثم قادوني عبر سلم ينحدر إلى أسفل.

وظللت في الزنزانة يومين لم أر خلالهما أحداً. كنت أسمع فقط صدى خطوات في الخارج. كان هذان اليومان أطول يومين في حياتي. فقد جرت فيهما أكبر مواجهة صريحة هادئة بيني وبين نفسي.كانت مواجهة بعيدة عن كل عوامل الخوف. لأن كل ما كنت أخشاه قد وقع. وخالية من أي تخيلات فقد كان الواقع يشغل كل حيز المكان.

ولكن في اليوم الثالث تبدلت الأشياء. فقد انفتح باب الزنزانة ودخل جنديان بملابس الميدان وابتدآني بالضرب مستخدمين حزاميهما، ثم أخذا يجرانني عبر ممر ضيق خارج الزنزانة، حيث تناهت إلى أسماعي أصوات مظاهرة. ولكنني لم أصدق أذني وأرجعت هذا الوهم إلى الصفعات التي كانت تنهال على وجهي وراسي. ولكنني وجدت نفسي بعد بضع ثوان في وسط هذه المظاهرة. كانت حجرة كبيرة مستطيلة مثل عنبر الجنود. وكان هناك صف طويل من البشر قد تغيرت سحناتهم يهرولون عبر الممر داخل الحجرة في حركة دائرية وكأنهم يسعون بين الصفا والمروة. يهتفون بأصوات عالية:

ـ تحيا الوحدة. لا شيوعية لا حزبية...

بينما كان الرائد عدنان يقف بقامته الطويلة في وسط الحجرة مرتديا بدلة الميدان وعيناه الشهلاوان يتطاير منهما الشرر. ممسكا بيده مطرقة من المعدن.

ودفع بي الجنديان في وسط المعمعة بعدما أشبعاني ضربا وركلا عند الباب. وقال لي أحدهما وهو يدفعني وسط صف المهرولين بركلة:

ـ اهتف يا حقير! ووجدت نفسي أهتف بأعلى صوتي..

كان الرائد عدنان يختار بين الحين والآخر أحد المهرولين ليلقيه أرضا وينهال عليه ضربا بالمطرقة.

بينما أخذ الجنود يحيطون بنا ويضربوننا أينما شاؤوا وحينما يريدون، فلديهم سلطة تقديرية واسعة في هذا الخصوص! .

كان الرائد عدنان يقوم بين فترة وأخرى بتغيير الهتاف بآخر. وتوقف طلال سعيد فجأة ليشعل سيجارة ويسرح قليلا بأفكاره متلذذا برائحة التبغ المنساب خارجا من منخريه. ثم واصل حديثه ضاحكا وهو يستند براحة يده على الأرض

الخضراء: كنا نسمى هذا البرنامج " التعذيب العام" إذ لا يستثنى منه أحد. أما بعد الرجوع إلى الزنزانات فلكل برنامجه الخاص به. ولكن بخصوص هذا البرنامج بالذات فقد كان الجميع يعاملون فيه على قدم المساواة. وعندما عادوا بي أول يوم إلى الزنزانة وانفردت بنفسي أجهشت بالبكاء لا بسبب الإعياء لكن لأنهم يضربونني لكي أهتف بحياة الوحدة بينما كنت مستعداً لأن أقولها دونما حاجة إلى ذلك .

ثم ضحكت وسط دموعي عندما تذكرت أنني كنت أهتف في المظاهرات بحياة الوحدة العربية والشرطة تضربني بالهراوات، بينما اليوم يضربونني لكي أهتف بها. ترى أينا كان على حق. أنا أم الشرطة أم هؤلاء ؟.

وتداعت في ذهني أسئلة كثيرة وبدأت تتقارب الحدود بين الأشياء حتى اندمجت في بعضها تماما. وذات يوم أتوا إلى في غير الوقت المعتاد. فاعتقدت أنهم غيروا مواعيد التعذيب أو أنني بصدد الدخول في مرحلة متقدمة منه. ولكنهم اقتادوني عبر الطريق الذي دخلت منه لأول مرة. وأدخلوني في مكتب فخم يتبوأ المقعد الوثير فيه شخص في حوالي الأربعين من عمره، في ملابس مدنية، ولكن عموم هيئته وطريقة تسريح شعره

ولهجته دلت على أنه عسكري أعلى رتبة من الرائد عدنان الذي كان جالسا بصمت إلى جانبه.

وتركني لحظة واقفا وهو يتفحصني قبل أن يسألني عن اسمي ومهنتي، ثم يوجه إلى سؤالا لم أكن أتوقعه، وذلك عندما سألني:

ـ لماذا أتوا بك إلى هنا؟

ولم أستطع أن أمنع نفسي من ابتسامة كادت أن تتحول إلى ضحكة مدوية وسط ذلك الجو المكفهر. قلت:

ـ ألست أنا هو صاحب هذا السؤال؟ !

وهنا استشاط غضبا وكاد ينهض من مقعده ليضربني قائلا:

ـ أنت حزبي قديم وهذا يكفي دليلا ماديا على حقدك وكراهيتك للوحدة !.

ولم يعطني بعد ذلك فرصة للرد عليه. بل استمر يخاطبني متوعدا ثم أمرهم بإرجاعي إلى الزنزانة قائلا:

ـ خذوه وأدبوه.

لا زال يردد العبارات التي حفظها جاهزة في قوالب.

وجاء يوم سمعت فيه طلقات الرصاص داخل المبنى وأحسست أن الرصاص ليس متبادلا بين مهاجمين ومدافعين بل هو يطلق إلى أعلى كما هو الحال في وضع التحذير أو الابتهاج. وبعد لحظات دخل علينا جنود بأسلحتهم ومعهم ضابط يطلب منا بأدب أن نعود إلى منازلنا فقد انتهى عهد الظلم !!.

ولم أصدق ما أسمع. فقد تركت خلفي في آخر يوم دخلت فيه السجن نظاما قويا تحرسه المخابرات والشرطة العسكرية والجيش. فلا بد إذن أنني مكثت سنوات طويلة في هذه الزنزانة. ولم أسأل هؤلاء الذين أخرجوني عن شئ. فقد كنت متلهفا لرؤية العالم الخارجي قبل السماع عنه. كنت حتى تلك اللحظة أظنها ثورة في الوحدة. وكان السؤال الذي يدور في ذهني وأنا أصعد درجات السلم هو:

- أي الاتجاهات قد ربح الجولة؟ وعندما خرجت أصبت بالحيرة. ففي أي اتجاه أسير؟ وأي الأصحاب أختار للذهاب إليه ؟.

قد يبدو لك هذا مضحكا ولكنه في حقيقة الأمر مشكلة بالنسبة لشخص ملقي في زنزانة مظلمة لا يحلم حتى بطيف

من شعاع الشمس. وفجأة يجد نفسه حرا طليقا وسط الشارع. فمثل هذا الوضع المفاجئ لم يكن واردا ضمن حساباته. ولهذا فإنه يصبح فجأة رجلا بدون برنامج. ولكن على كل حال بعد حديثي مع المارة وسماعي للمذياع وجدت أنه لا حاجة للاستفسار عما حدث فالأمر لا يعدو أن يكون انقلابا عسكريا خارج الوحدة.

وذهبت من فوري إلى حلب فاستوقفتنا دورية أمام باب المدينة نظرا لعدم وضوح الأحداث فيها، ولكنني استطعت دخولها راجلا من طريق آخر، فوجدتها ما زالت تحمل أعلام الوحدة.

وهنا توقف طلال سعيد وظل ساهما ينظر إلى الشمس التي مالت نحو المغرب ملقية بأشعتها على رؤوس الجبال الصغيرة المتناثرة في غرب"ديجون"، ثم أخذ يثرثر بينه وبين نفسه وكأن ليس بجانبه شخص يعزه كثيرا، أو أنه ليس بصدد سرد أحداث موضوع لم يمل العرب الحديث عنه حتى الآن، وسمع أنيس بقية الجملة التي قالها طلال سعيد وهو ينظر إلى الجبال التي تبدو قممها الصغيرة مذهبة بشعاع الشمس الغاربة:

- " هالبلد قديش ريفه حلو".

ثم عاد إلى موضوعه السابق قائلاً:

- عندما وجدت نفسي طليقا في شوارع حلب أو دولة الوحدة. اضطررت للوقوف لحظة حتى أستوعب هذا التناقض. لقد كنت سجينا في دولة الوحدة ثم صرت طليقا في دولة الانفصال، وها أنا أيضاً طليقاً في دولة الوحدة فخرجت لأشارك في مظاهرة تأييد للوحدة وشجب الانفصال. وعندها زالت كل التناقضات التي كانت تتصارع في ذهني، فكل ما هناك هو أن النظام وأجهزته البوليسية قد هزما في دمشق بينما انتصرت الوحدة العربية بدونهما في حلب.

وعندما شاهد طلال علامات تساؤل على وجه أنيس قال مجيبا:

- نعم كنت أعلم أن مقاومة حلب لموجة الانفصال لم تعد سوى مسألة ساعات. ومع هذا فقد كان من الضروري الخروج في مظاهرة مؤيدة للوحدة مهما كان الثمن وذلك لمعنى أكبر من كل المعاني.

وأخذت حقيبتي وتسللت إلى حمص بعد أن بدأت مخابرات النظام الجديد في اعتقال الذين قادوا مظاهرات حلب. وبعد أن قضيت بضعة أيام في منزل صديق لي هناك. خرجت من حمص ليلا لأجد نفسي بعد يومين داخل الحدود اللبنانية. قال أنيس الذي ظل طوال الوقت صامتا:

ـ إذن دخلت السجن مع دخول الوحدة إلى سوريا وخرجتما سويا !.

فقال طلال:

ـ ومن يدري..

وهنا قطع حديثهما هشام خلف الذي كان مارا في طريقه من المكتبة إلى كلية الآداب. وبعد أن حياهما قال ممازحا أنيسا:

ـ إذا كنت بصدد الحديث عن إنشاء خلية لأيلول الأسود ـ مثلا ـ فاعتبرني عضوا فيها !.

فقال طلال بلهجة جادة:

ـ دعك من هذا المزاح الخطير. فلو سمعته الشرطة الفرنسية لصدقته.

فرد هشام خلف وهو يربت على كتف أنيس:

- " نحن عم نمزح مع الزلمي" .

فقال أنيس ضاحكا وبنفس لهجة هشام خلف:

- " ياعم اترك الزلمي في حاله".

فعلق طلال سعيد ساخرا:

- ها أنت تتكلم لهجة أهل الشام.

فقال هشام:

- لقد علمته منال لهجة أهل الشام في مقابل اللغة الفرنسية.

فعلق طلال ضاحكا:

- إنها تجارة غير رابحة.

وهنا قال أنيس:

- مشكلة أهل الشام أنهم يستطيعون التأقلم مع أشياء كثيرة وترك أشياء أخرى دون التخلي عن عقلية التاجر.

فأخذ هشام خلف يقهقه قائلا :

- " في هيدي إليك حق ".

ونهض طلال قائلا وهو ينظف أطراف (بنطلونه) من العشب العالق به:

- لا بد أن أعود إلى البيت. لأن " أيفلين" تنتظرني لكي نذهب سويا لتلبية دعوة من أحد الأصدقاء..

وقبل أن يفترق الثلاثة التفت هشام إلى يساره فرأى منالا قادمة نحوهم فقال لأنيس:

- لن نتركك وحدك ها هي مليحة العرب قادمة .

(3)

عندما وجد أنيس أن لا وسيلة للتغلب على الأرق هذه الليلة، جلس في الفراش وأقام وسادته مع الجدار وأسند رأسه إليها.

كان كل شيء ساكنا حوله. ومنال نائمة بجانبه كالطفلة تزعجه بين حين وأخر بإلقاء يدها لا إراديا نحوه فتقع على وجهه.

فأخذ يدها ووضعها تحت وسادته ثم قبلها بهدوء على شفتيها فتململتا غريزيا ولكنها لم تصح. فسحب الغطاء على

وجهها، وعاد إلى وضعه السابق فأشعل سيجارة، وظلت عيناه تنتقلان بين جدارن الحجرة، ثم وقعت عيناه على أحد كتب التاريخ المتناثرة فوق المنضدة القريبة من السرير فتناوله وأخذ يقلب صفحاته متلهيا بقراءة بعض السطور من صفحة لأخرى. فهو يعد أطروحة دكتوراه في التاريخ. وأحس برأسه يزداد ثقلا ويتراخي على الوسادة فتركه يهبط ببطء مع الوسادة حتى استراح تماما.

- "أليس بالإمكان أن تزيد سرعتك قليلا ؟". قال نعمان ناصر لسعيد تامر فأجاب هذا وهو يشير بيده إلى ناقل السرعة في سيارة "لاندروفر".

- إننا على أقصى سرعة ممكنة كما تري.

فتسأل أنيس كامل الذي يجلس في المقعد الخلفي بجانب نعمان ناصر:

- كم تبقي من المسافة؟

فرد نعمان ناصر:

- حوالي 50 كم.

فقال أنيس:

- هل تعتقد أننا سنصل قبل انعقاد المؤتمر؟

فرد نعمان هازا رأسه بالنفي:

- لا أظننا نستطيع الوصول إلى "أهليس" في غضون ساعة. هذا إذا انعقد المؤتمر في الساعة الرابعة كما هو مقرر.

هكذا بدأت الأحداث تتداعي في مخيلة أنيس كامل وهو نائم مسترجعا أحداث ذلك اليوم البعيد من شهر يوليو 1974 عندما كانت السيارة تتسلق بهم طرقات ردفان الجبلية الوعرة متجهة من عدن إلى منطقة "أهليس" في ظفار.

لقد هرب عبر حلمه بعيدا عن واقع "ديجون". ولكنه لم يتابع شريط ذكرياته تسلسل الأحداث كما وقعت. بل أخذ يقفز فوقها منتقيا أكثرها بروزا ويتوقف عند أولي العمليات التي قام بها مع الفصيلة الخامسة في منطقة جنوب ظفار.

كانت الشمس قد غربت منذ حوالي الساعة عندما اقتربوا من الهدف في تشكيلات ثلاثية يتقدمهم إسماعيل ناصر قائد الفصيل.

وعندما وصلوا إلى حافة السياج المحيط بالقاعدة

الإنجليزية توقفت إحدى المجموعتين وانتشرت في مراكز متباعدة بينما استأنفت المجموعة الثانية زحفها داخل السياج.

كانت الأهداف واضحة. ممر الطائرات الذي يبدو ممتدا أمامهم، تربض في جانب منه طائرة عمودية يسهل تمييزها رغم الظل الخفيف الذي يلقيه عليها مرأب الزنك حاجبا عنها ضوء المصابيح القريبة منها، صهريج الوقود الذي ينتصب في نهاية الممر، برج القاعدة الذي يبدو أقرب الأهداف إليهم.

ولم يمض وقت طويل حتى سمعوا صوت القذائف، ثم شاهدوا ألسنة النار ترتفع من الصهريج والطائرة العمودية، ورأوا أضواء برج المراقبة تنطفئ خلف سحابة من الدخان، وتعاقبت أصوات الرصاص من الجهتين.

وبعد حوالي ربع الساعة شاهدوا ثلاثة أفراد فقط يقفزون من أكثر أماكن السياج انخفاضا ثم يختفون في الظلام متجهين نحو الوادي.

إذاك انسحبت مجموعة الحماية دون أن تسلك الطريق الذي سلكه من تبقي من أفراد المجموعة المهاجمة.

وفجأة وجدوا أنفسهم أمام إحدى سيارات الدورية.

عربة"جيب" تحمل مدفعا رشاشا مصلوبا على مقدمتها، كانت تتسلق سفح الجبل قاطعة عليهم طريق العودة.

وما أن اكتشفتهم حتى أخذت تحاصرهم بنيران مدفعها الرشاش. فانبطحوا جميعهم وأخذوا يردون على النار، بينما تسلل سعيد تامر أحد المسالك الوعرة وفي حقيبته قنبلتان يدويتان. كانت نيران عربة الجيب تحاصرهم في قبو صغير تحميه كومة من الأحجار، وتأخر سعيد تامر حتى ظنوا انه قد وقع هو أيضا في كمين.

وفجأة دوي الانفجار وشاهدوا مقدمة الجيب ترتفع إلى أعلي، وثلاثة أجسام تطير في الهواء. فخرجوا وهم يطلقون النار على ما تبقي من العربة صائحين:لقد انفجرت عربة الجيب.

وهنا استيقظت منال على صوت غمغمة أنيس، وأخذت تزيح رأسه برفق محاولة تعديل وضع وسادته. واستيقظ هو أيضا فوجد منال جالسة، وما أن شاهدته يفتح عينيه حتى قالت باسمة:

ـ لقد صرت تحلم بصوت عال.

فقال وهو يلقي إلى الخلف بخصلات شعرها المتكومة فوق صدره ويطوق رقبتها بيديه:

- لقد أزعجتك. إنني لا أعرف كيف أتخلص من هذه المشكلة.

فقالت وهي تتركه يضمها إلى صدره:

- لا أبدا. لقد تعودت على هذا.

ثم أردفت ضاحكة، وبلهجتها الدارجة:

- "الشيء اللي بيزعجني هو انه سيارة الجيب هيدي صار لها سنتين بدها تنفجر ولحد هلق ما انفجرت".

فقال ضاحكا:

- ولكنها كانت قد انفجرت في الواقع.

فقالت منال:

- طبعا أعرف هذا وإلا كنت الآن سجينا في سجون السلطان قابوس على أحسن افتراض.

فقال وهو يشيح بنظراته عن عيني منال:

- ربما كان من الأفضل ألا تنفجر.

فوضعت منال راحة يدها على فمه لتمنعه من الحديث قائله "يا للا بلاش تشاؤم".

ثم أخذت تغمغم وهي تريح رأسها على كتفه وتترك يدها تنزلق على فمه:

ـ لماذا هذا الندم؟ ربما لأن الظروف جمعتك بي في نهاية الأمر هنا في "ديجون".

فقال:

ـ ما هذا الجنون؟ إنك تفسرين ما أقوله حسب تصوراتك الخاطئة.

فقالت:

ـ تصوراتي نابعة من إحساس غريزي لا يخطئ أبدا.

فأخذ يضحك بصوت منخفض وهو يهدهد رأسها بلطف قائلا:

ـ من أين لك هذه النظرية؟

قالت بعصبية:

ـ دعني من النظريات التي لا يشغلك شيء آخر أكثر منها.

وأحس بأنها في حالة غير طبيعية من التوتر النفسي والتشنج، فلاذ بالصمت بينما أخذت يداه تمسدان شعرها وتربتان بهدوء على كتفها، وران الصمت عليهما فترة كان يعرف بحكم تجربته معها أنها كافية لتهدئة فورة غليانها النفسي. وأخذ يهمس في أذنها:

- منال، منال.

ولكنها لم ترد. كان يعرف أنها لم تنم ولكن هناك شيئا ما زال يضطرم في داخلها ويمنع كلماتها من الخروج.

فقال وشفتاه تلتصقان بأذنها:

- لديك حق أن لا تردي.

فأنت لست منال ولكنك "مليحة العرب".!

وأحس بها تتململ قليلاً فوق صدره فاستأنف همسه:

- هل من المعقول أن يندم رجل في هذا العالم على تعرفه إلى امرأة مثلك.

ثم وضع يده تحت ذقنها ورفع رأسها بهدوء إلى أعلى وهو يقول:

- لم يسبق لي أن قلت شعرا في عيني امرأة قبلك.

كانت عيناها مغرورقتين بالدموع بينما تحدرت دمعتان فوق وجنتيها الورديتين واستقرتا عند زاويتي فمها الصغير. ظلت عينا كل منهما متعلقتين بالآخر في استغراق تام. ثم امتدت يده بعفوية لتمسح مآقيها. أخذ بعدها يمرر إصبعه المبتل فوق شفتيها المضمومتين وهما يختلجان ببقية عبرات مكتومة.

قال بصوت خافت وهو يطبع قبلة على إحدى وجنتيها:

- قد يكون من الضروري أن نبكي أحيانا.ولكني أكره أن أري شخصيا يبكي.

قالت بصوت مبحوح:

- أريد أن أراك يوما وأنت تبكي.

فقال بلهجة بين الجد والهزل:

- لم يسبق لهذا اليوم أن أتي. من يدري. لقد مررت بمواقف كثيرة كان البكاء فيها وسيلة ناجحة للتنفيس ولكنني لم أجد دموعا.

ثم قال وهو يبتسم بسخرية:

- لكل منا مشاكله. ولكن يكفي أن يبكي أحدنا ويظل الآخر يواسيه. فهذا أحسن مما لو كنا نبكي معا!

ظلت ساكنة فوق صدره وعيناها متحجرتان في عينيه، وكأنها تستمع إلى واعظ في كنيسة، كعادتها دائما كلما تحدث في أمور كهذه.

وأخذ يداعب أنفها بأصبعه محاولا إخراجها من آخر بقايا التوتر التي ما زالت تبدو على قسمات وجهها وهو يقول:

- كل النساء عندما يبكين يبدون دميمات أما أنت فلا تنطبق عليك هذه القاعدة. ولكنني مع هذا فإنني عندما تبكين أحس بشيء من الخوف.

قالت وهي تضحك ضحكة خفيفة وبسذاجة محببة إليه:

- "يعني أنت بتخاف مني".

قال وهو يتحسس عينيها بشفتيه ويقبلها:

- إنني لا أخاف منك أنت ولكنني كلما رأيت عينيك مترعتين بالدموع خشيت أن أغرق فيهما.

وعندها لن تستطيع كل الأساطيل أن تنتشلني منها!

وهنا انفجرت "مليحة العرب" ضاحكة على سجيتها وهي تقول: اطمئن الأسطول السادس موجود. فقال بسخرية:

- لقد صار بعبعا هذا الأسطول السادس.

يخمد الثورات، ويغير مجري المعارك، ويحشر نفسه أيضا بين المحبين.

قالت منال:

- إنني أكرهه منذ أن رأيته لأول مرة في لبنان.

فقال متسائلا بلهجة ساخرة:

- هل رأيته حقا؟ كم أنت محظوظة. إنني لم أره في حياتي قط.

قالت:

- إنني لم أر الأسطول. رأيت المشاة فقط عندما نزلوا في بيروت عام 1958. كنا مجموعة من الأطفال نلعب في الحارة عندما سمعنا شخصا يصيح وهو يعدو في الشارع:

- لقد وصل الأمريكيون.

كنت لا أدرك أي معني لهذا الكلام وذهبت مع الأطفال في نفس الاتجاه الذي يشير إليه الرجل، فوجدناهم في الشوارع القريبة من الميناء يحملون أسلحتهم، ويتلقون الورد الذي يلقي به بعض الناس إليهم من شرفات المنازل.

وأضافت منال بلهجة ساخرة:

- لقد مروا في الشوارع بأسلحتهم" ما حدن حاكاهم"! ولكن عندما توغلوا في الأحياء البعيدة سمعنا طلقات الرصاص المتبادل بينهم وبين بعض الكمائن في بيروت الغربية.

وأصابنا الذعر فعدنا إلى منازلنا، ولكن والدتي عنفتني كثيرا على هذا الخوف الذي انتابني لسماعي بعض طلقات الرصاص قائلة: لماذا تخرجين وتجعلين من نفسك بطلة وأنت جبانة إلى هذا الحد.

فقال أنيس مازحا:

- ولكنك ظللت على عكس والدتك تماما.

قالت منال:

- والدتي نوع آخر من النساء. لم تبك أيا من ابنيها اللذين استشهدا. وعندما ودعت آخرهم - أخي نايفا - ليلتحق

بالمقاومة، كانت ترد على بعض الذين يقولون لها: هـذا آخر أولادك ومن حقك أن يبقي في بيتك ولد، بقولها: نحن ليس لدينا بيت حتى نحتفظ فيه بولد.

ورغم أن أنيس كان يفضل أن لا تستمر منال في سرد حكايتها غير السارة هذه إلا أنها تابعت حديثها وهي تغالب النوم: وعندما نقلوا إلينا نبأ استشهاده في "غابة جرش" تركتني أبكيه عدة أيام بينما كانت تذهب هي إلى الكنيسة.

فقد كانت تحب نايفا كثيرا. ومع هذا كانت تتجلد مرددة جملة واحدة: يحز في نفسي أن يكون قاتلوه عربا.

وهنا توقفت منال فلم تعد قادرة على إخراج كلماتها، وظلت ساهمة تركز نظراتها على جدران الغرفة، فأزاحها أنيس بهدوء ووضع رأسها برفق على صدره وأطفأ الضوء فغمر الحجرة الصمت والظلام.

(4)

لم يكن راغب مهداوي يعي ما يجري حوله عندما نقل إلى المستشفي بينما كان يردد جملة واحدة:

- إن اللذين اعتديا عليَّ كلاهما عربي.

فقال هشام خلف وهو من بين الذين حملوه إلى المستشفي:

- وما أدراه "الزلمي" أنهما عربيان. ثم أضاف ضاحكا:

- تراه قد ظنهما عربيين لأنهما ليسا أشقرين.

فرد عليه خالد أنور غاضبا:

- "الزلمي عنده حق . هو فيه حدن يسرق في هالبلد غير العرب"!

فثار في وجهه هشام صائحا:

- أنت أيضا عنصري. إنك لم تترك شيئا كريها للفرنسيين ليقولوه في العرب!.

كان هشام يعرف جيدا أن خالد أنور ليس كذلك، وأنه عربي إلى حد التعصب، ولكنه أثاره مشهد راغب مهداوي وهو ملقي في السهل الأخضر. فقد اعتدي عليه شابان الليلة الماضية في أحد المراقص، واقتاداه إلى الخارج حيث جرداه من كل ما معه من النقود وهي منحته الشهرية كلها، ثم تركاه ملقي فاقد الوعي في منطقة السهل الأخضر .

قال خالد أنور وهم في طريق العودة من المستشفي:

ـ لا استبعد أن يكون أصحاب هذا الصنيع من العرب.

ثم أضاف موجها حديثه إلى هشام خلف:

ـ أنت تعرف أن في هذه المدينة عشرات الآلاف من المهاجرين العرب، ومن بينهم نسبة كبيرة من الشباب العاطلين عن العمل، بعضهم يحمل بطاقات التعريف الجامعية وتسهيلات الإقامة. ولم يعلق هشام خلف بشيء. ولدى وصولهم إلى مقهى "مي موزار" الجامعي حيث هناك عدد كبير من الطلبة العرب، طرح هشام خلف فكرة جمع تبرعات من الطلبة لتعويض راغب مهداوي عن المبلغ الذي فقده.

وتدخل خالد أنور قائلا:

ـ "مصاري الزلمي " أخذها العرب فليس غير العرب مطالب بالتعويض.

ولم يعجب هذا التعليق اللاذع ممدوح شعراوي فقال:

ـ إنك تتحدث عن العرب في "ديجون" وكأنهم جميعاً من قطاع الطرق.

قال هشام خلف:

- "يا خوانا أيش بدهم أيسوو" هؤلاء المهاجرون إذا كانت أبواب الرزق مقفلة في بلدانهم، والعرب الأغنياء لا يمنحونهم حتى مجرد تأشيرة سياحة لدخول بلدانهم.

فرد خالد أنور قائلا:

- إنني على يقين من أنه حتى لو فتحت أبواب هذه البلدان أمام هؤلاء فلن يذهبوا إلى هناك، لأنهم تستهويهم "بارات" أوروبا ومراقصها ونساؤها رغم أنه ليس لهم فيها نصيب على الإطلاق.

وتدخل ممدوح شعراوي الذي كان منشغلا بوضع التبغ داخل الورقة الصغيرة استعدادا للفها بواسطة آلة اللف التي لا تفارقه: على كل حال، لا يبدو أن هذه البلدان تريد فتح حدودها. كما أن هؤلاء لا يبدون راغبين في الذهاب إليها.

فقال طلال سعيد الذي ظل يدخن بشراهة طوال المناقشة دون أن يتدخل فيها:

- قد يكون صحيحا أن هؤلاء لا يريدون الذهاب إلى تلك

البلدان لأنهم يعيشون في أوروبا تحت مداعبة أحلام كاذبة. ولكن هل فتحت هذه البلدان حدودها لأولئك الذين ليست لديهم مثل هذه الأوهام؟.

وهنا وجد أنيس نفسه مشدودا إلى النقاش فقال:

- وهل ترى أنه يتحتم على هؤلاء أن ينتظروا حتى تفتح لهم الحدود؟.

قال طلال سعيد بالفرنسية كعادته دائما كلما مس منه الحديث موضعا حساسة (Exactement) تماما. فهذه الطبقة يجب أن تتخطي الحدود ليس بحثا عن فرصة عمل. ولكن ممارسة طبيعية لدورها التاريخي.

فقال ممدوح شعراوي:

- هذا رائع ولكنه الخيال.

فرد عليه طلال:

- "ليه يا زلمي هيدا ما يمكن أيصير؟".

فأجاب ممدوح:

- ممكن في حالة واحدة وهي عندما يكون هؤلاء - الذين

تتحدث عنهم - يفكرون ويعون الأشياء مثلك ومثل أنيس تمامًا.

قال طلال سعيد:

- ليس بالضرورة. يكفي أن تكون طلائعهم كذلك،

وهنا شاب لهجة ممدوح شعراوي نوع من العنف وهو يقول:

- أين هي هذه الطلائع التي تتحدث عنها؟. هل تقصد هؤلاء الذين يمضون أوقاتهم بين مقهى "لاكروبول" و"ألشيل" وأمثلتهم في أماكن أخري غير ديجون، وأردف ممدوح مرددا لازمته المحببة: (يا سيدي) هؤلاء ليسوا مستعدين لقيادة هذه الطبقة التي تتحدث عنها. إنهم يخططون ويدبرون فقط لاصطياد الفتيات.

وتدخل هشام خلف قائلا:

- إن اللوم ليس على هؤلاء. فلو كانت حاجاتهم مشبعة، أتراهم يأتون إلى هنا للقيام بأعمال كهذه.

فرد عليه أنيس متسائلا:

- وهل تعتقد أنهم واجدون لها إشباعا هنا؟

قال هشام:

- بكل تأكيد لا.

فقال أنيس:

- إذن لماذا المجيء إلى هنا؟

واسترسل أنيس في تحليلاته:

- إن بقاءهم هو الكفيل بتغيير المعطيات هناك أما مجيئهم إلى هنا فلا ينتج عنه سوي ضياعهم وإطالة أعمار تلك الأوضاع التي أعطتهم تأشيرات خروج للتخلص منهم.

قال ممدوح شعراوي:

- إنكم تتحدثون عن الطبقة العاملة وكأنه مطلوب منها أن تقوم بكل شيء. بينما يقف المثقف متفرجا.

تدخل خالد أنوار قائلا:

- ماذا تريده أن يفعل أكثر مما فعل؟ إن المثقف العربي له مشاكله هو أيضا كأي مثقف آخر في هذا العالم.

قال ممدوح شعراوي وهو يخرج نظارتــه ونــادرا مــا يضعها على عينة لبضع دقائق ثم ينزعها:

- أبدا إنه قليل الشبه بغيره من المثقفين. لأنه لا يخرج عن أن يكون أحد نماذج ثلاثة. إما أن يكون مرتزقا من الــسلطة. وإما مهاجرا يرسل بنصائحه وإرشاداته منتظرا أن تحــدث الخوارق وتقوم الثورة. أو مقيما داخل البلد ولكنه صامت لا يحرك ساكنا. لأنه يعتقد أن وجــوده فــي الــدخل وعــدم مشاركته في العمل مع السلطة يعد قمة الثورية.

قال خالد أنور وقد أخذ الحوار ينحسر بينه وبين ممدوح، وبدأ أنيس مقتنعا برأي هذا، فلم يعلــق بــشيء بينمــا صــمت الباقون:

- بطبيعة الحال. إن البقاء في الداخل ورفض المشاركة هو أفضل من الانضمام إلى جوقة المظللين.

فرد ممدوح وهو يهز كتفه:

- بالطبع هذا يبدو أفضل لأنك تقارنه بما هو أسوأ منه.

فقال خالد أنور بلهجة معتدلة:

- ولكن ينبغي علينا أن نقدر ظروفه. فهو يعيش داخل البلد تحت رحمة النظام. ولدى قيامه بأدنى نشاط مضاد يخنقون أنفاسه بحبل المشنقة في ميدان عام.

فبسط ممدوح شعراوي يده على الطاولة رافعا من صوته قليلا:

- هذا شيء طبيعي. فهم يدافعون عن استمرار يتهم في السلطة بالوسيلة نفسها التي اكتسبوها بها.

كان معظم الحاضرين يعلم أن ممدوح شعراوي صادر ضده حكم غيابي من حكمة أمن الدولة بالسجن ثلاث سنوات لأسباب سياسية، وأن زوجته ممنوعة من الخروج من مصر للأسباب ذاتها.

ولم يجد أي الموجدين ما يضيفه على تعليق ممدوح.

وبعد قليل بدأ الحاضرون يغادرون المقهى واحدا بعد الآخر دون أن يصلوا إلى حل لمشكلة راغب مهداوي .

(5)

لم يكن تيسير سمعان قد استيقظ من نومه بعد، عندما سمع طرقا خفيفا على باب حجرته في بيت الطلبة. فيوم الأحد ينام كعادة الطلبة جميعا حتى ساعة متأخرة من النهار. فليس هناك الشيء الكثير الذي يمكن عمله خلال يوم الأحد في مدينة "ديجون" التي تبدو شوارعها شبه خالية من المارة عدا بعض مجموعات من العرب المهاجرين الذين يطوفون شوارع المدينة وأزقتها لكسر طوق عزلتهم في أحد المقاهي التي تظل مفتوحة خلال هذا اليوم، أو لإغراق همومهم وأحزانهم في إحدى الحانات التي لا تمانع في استقبال العرب!.

نهض تيسير متثاقلا من نومه، وفتح باب حجرته ليجد أمامه ممدوح شعراوي الذي بادره مازحا وهو يضع يده على كتفه ويدفعه ببطء أمامه قائلا:

- "لسه نايم يا كسلان".

فرد تيسير سمعان:

- وهل هناك ما يمكن أن نفعله في هذا اليوم.

قال ممدوح وهو يجلس:

- لقد ذكرتني بتعليق "قارو" الذي يردده دائما حول الوضع يوم الأحد في مدينة "ديجون"

وتساءل تيسير:

- ما هي آخر تعليقات "قارو" في هذا الخصوص.

ثم أردف وهو يزفر:

- إن ميزة قارو هي أنه يجعلنا نضحك على مآسينا.

فقال ممدوح:

- ألم يسبق لك أن سمعته يردد ساخرا:

- لا تجد في شوارع "ديجون" يوم الأحد سوى العرب والقطط الضالة!.

فقال تيسير سمعان:

- ألا تري أن تعليقه جاء مطابقا للحقيقة بصرف النظر عن قسوته.

فقال ممدوح شعراوي وهو يخرج عدة لف السجائر:

- "ما فيش كلام".

وبعد أن أعد تيسير القهوة لضيفه جلس وهو يرتشف قليلا من قهوته قائلا:

- لقد ظننت أن الطارق هي "شانتال" ولقد عادت من زيارة أهلها.

قال ممدوح:

- أرجو أن يكون أهلها قد غيروا موقفهم تجاهك.

فقال تيسير:

- بالعكس موقفهم يزداد تصلبا. فقد زارها والدها وشقيقها في الأسبوع الماضي، وعندما ذهبا جاءت لتروي لي تفاصيل ما جري بينها وبينهما عندما نصحاها بأن تقطع علاقتها بي، لأنه حسب رأي والدها أنه لن يستطيع أن يداري خجله أمام أهل قريته إذا جاءت ابنته لزيارته ومعها هذا العربي.

وعندما طلبت "شانتال" منه تفسيرا لسبب هذا الخجل أجابها قائلا:

- أنت تعرفين يا بنتي انه ما من أحد في قريتنا يرضي

لنفسه أن يقال عنه ابنته تخرج بصحبة عربي أو إن صهره عربي.

وعندما حاولت هي إقناعه قائلة:

- إن صورة العرب مشوهة في ذهنك. ثم إن هذا الشاب هو زميل الدراسة وأحبه، وسيصبح بعد حين أستاذا جامعيا.

قال لها:

- ولكنه يظل عربيا في نظر جميع الفرنسيين!

قال ممدوح شعراوي:

- " شايف ابن الإيه. دأنت وقعت على أبو العنصرية".

فرد تيسير قائلا:

- هو ليس ظاهرة شاذة عن مجتمعه ولكن للحق يجب القول إن غالبيتهم لا تباري في هذا المجال.

فهزّ ممدوح رأسه ثم طأطأ إلى أسفل بينما حجبت وجهه عن تيسير سحابة كثيفة من الدخان صعدت من سيجارته التي كانت قد قاربت على نهايتها، فجذبها من بين شفتيه وهو يقول:

- لديك حق.

قال تيسير ويده تعبث بفنجان القهوة الفارغ:

- لا تبدو لي ظاهرة العنصرية هنا ذات بعد طبقي فقط كما يتصورها البعض.

فقاطعه ممدوح قائلاً:

- طبعاً طبعاً هي ذات بعد حضاري وتاريخي موغل في أعماق الزمن .

لربما كانت تلك المرة الأولى التي يجد فيها تيسير سمعان ممدوح شعراوي متفقا معه حول تحليل لظاهرة اجتماعية دون أن يعطي الأولوية لبعدها الطبقي كعادته دائما.

تساءل ممدوح شعراوي والتأثر لا زال باديا على لهجته:

- وكيف كان موقف أخيها؟.

فرد تيسير بلهجة ساخرة:

- لقد كان أكثر منطقية في عنصريته!

وانفجر الاثنان ضاحكين بينما علق ممدوح قائلا:

- "دي برضو فيها منطقية".

قال تيسير:

- لقد حاول أن يسوق حججا أقل عنفا من حجج أبيه.

فقال لها:

- إن رفضنا له ليس أمر متعلقا بالأسرة فقط لأنه عربي، ولكن من أجل مستقبلك أنت، لأنه لا يمكن أن تربطي مصيرك بمصير فلسطيني متشرد لا وطن له. أتفضلين أن تكوني لاجئة مثله وأنت الفرنسية أبا عن جد. ماذا سيكون موقفك عندما تجدين نفسك يوما زوجة لإرهابي تطارده أجهزة أمن معظم بلاد العالم!.

وعندما وجدا أنها مصرة على موقفها هددها والدها بقطع المصروفات عنها ومقاطعة الأسرة لها نهائيا. وأضاف تيسير بلهجة لا تخلو من تأثير:

- للأسف أنها تعتمد كليا على أسرتها. وليس بإمكانها أن تدفع حتى إيجار حجرتها في المدينة الجامعية. إنني أحس بعقدة ذنب تجاهها. لأنني من ناحية أحس بأن علاقتها بي هي السبب فيما تعانيه من مصاعب. ومن ناحية أخرى أجد نفسي عاجزا عن مساعدتها. ولهذا فقد حاولت أن أجد

مخرجا من هذا الموقف فاقترحت عليها أن تعيد ما انقطع بينها وبين أسرتها وأن تحد من علاقتها بي مؤقتا حتى تتحسن الظروف.

فقال ممدوح:

- وماذا كان ردها؟.

فأجاب تيسير:

- رفضت في بداية الأمر، ولكنها أخبرتني يوم أمس أنها ذاهبة لقضاء نهاية الأسبوع مع أسرتها. فيبدو أنها قبلت هذا الحل.

قال ممدوح:

- وهل تفضل هذا كحل مؤقت أم كحل نهائي في حقيقة الأمر؟.

قال تيسير سمعان وهو يتناول نظارته من الطاولة ويتفحصها قليلا ثم يضعها على عينيه:

- إن رجلا في ظروف غير ظروفي قد يفضل هذا كحل مؤقت أما أنا فأنت تعرف حقيقة وضعي، وأردف تيسير

وقد لاحت على محياه ابتسامه خفيفــة هــي خلــيط مــن الغضب والسخرية: ربما لو كنت امرأة تحلم ببيت مستقر وعامر بالأطفال السعداء ما كنت لأتزوج فلسطينيا مثلي!.

قال ممدوح وهو يحاول التخفيف عن تيسير:

- إن هذه الأمور تقع حتى لمن ليست لديه مثل هذه الظروف الموضوعية التي تتحدث عنها.

وأردف ممدوح وكأنه يريد أن يسري عن تيسير بطريقة أخرى:

- ها هي زوجتي لا تستطيع الخروج مــن مــصر، ولا أستطيع أنا الذهاب لرؤيتها، ومع هذا فإنه لدينا وطن. وأضاف ممدوح قبل أن يقاطعه تيسير. عندما تــرغم على البقاء في الوطن أو تخشي من العودة إليــه فــإن معني هذا الوطن يصبح في حاجة إلى تصحيح بمختلف الوسائل.

قال تيسير بعد برهة من الصمت:

- كمن تذكر شيئا ولكن كيف استطعت أن تحــصل علــى تأشيرة خروج بينما كنت متهما والتحقيق جاريا ضدك؟

قال ممدوح:

- لقد خرجت قبل بدء التحقيق. أما الاتهام فقد كان قائما قبل ذلك الوقت بعدة سنوات. فمنذ أن تخرجت من كلية الاقتصاد وتم تعييني في إدارة مصنع الحديد والصلب بحلوان. أخذوا يضيقون عليَّ للحيلولة دون نشوء أية علاقة بيني وبين أعضاء النقابة في المصنع. ورغم أنني كنت أحاول أن لا أعطيهم الأسباب والمبررات التي تمكنهم من إبعادي عن هذا المحيط العمالي ونقلي إلى جهة أخرى، إلا أنني كنت وزملائي متيقنين بأن هذا الأمر لن يتأخر كثيرا. غير أن استدعائي للخدمة العسكرية قطع جريان الأحداث وأجل حتمية وقوع هذا الأمر.

فتساءل تيسير:

- وهل توقفت هذه المضايقات أثناء وجودك في الجيش؟

قال ممدوح وهو يهز رأسه بعلامة نفي:

- حتى أثناء وجودي في القوات المسلحة كنت ضمن الضباط الذين تحكم علاقاتهم بقادة سراياهم مجموعة من الشكوك والتحفظات والصدامات.

وأضاف ممدوح شعراوي كمن تذكر حادثة معينة قائلا:

- حتى صباح يوم 6 أكتوبر لم يكن خاليا من الصدام بيني وبين قائد سريتي، وبعد الظهر عندما صدرت الأوامر لسرايا الدروع بالتقدم نحو القناة، أبلغني الأمر ولم ينس أن يناكفني بكلمة لاذعة كعادته قائلا:

- " آدي الحرب ابتدت يا فالح". وفي اليوم الرابع من الحرب عندما توغلت سريتنا شرق خط بارليف قال لي وهو ينظر إلى قناة السويس التي أصبحت خلفنا:

- " شايف يا نقيب ممدوح آدي احنا عبرنا من غير ما يكون جنرالات الجيش الأحمر معانا".

ولم أشأ أن أرد عليه أو أسأله لماذا يتوجه إليَّ بمثل هذا الكلام، لأن اللحظة لم تكن مناسبة لحديث كهذا.

واستطرد ممدوح وقد أغرته سلاسة ذكرياته بالمزيد: وفي اليوم السابع عندما قمت بإخلائه من دبابته التي دمرت شرق بور توفيق، نظر إليَّ وأنا أحمله ثم قال وأسارير وجهه تعبر عن ارتياح هذه المرة:

- لقد أمضينا ثلاث سنوات معا.

فقلت له:

- ومع هذا فإنك لم تفهمني.

فقال لي وقد طغي على صوته أزيز مروحـــة الطـــائرة العمودية التي قدمت لإخلاء الجرحى:

- لقد كانت لدي أوامر صريحة بأن أكون شديدا معك!.

وعندما حملوه إلى الطائرة قال لي مودعا:

- "أنا موش حتأخر كثير".

ولكن لم يعد المقدم جلال بعد ذلك اليوم أبدا.

وبعد وقف إطلاق النار كنت ضمن أول دفعة من ضباط الاحتياط يتم تسريحها. وفي اليوم الثاني لعودتي إلى القاهرة - مسرحا بملابس مدنية - تم إعلان التوصل إلى اتفاق ما أسموه فك الارتباط الأول. بينما ذهبت بعد ظهر اليوم نفسه للمـــشاركة في تشييع جنازة المقدم جلال. ولربما لم يكن انتباهي مشدودا في ذلك اليوم إلى أنباء الاتفاق التي كانـــت تتناقلهـــا كـــل وســـائل الإعلام، فقد كان المقدم جلال رغم كل شـــيء رفيـــق ســـلاح شجاع، أحترمه وإن لم يكن رفيق درب نضال. وتوقف ممدوح

لحظة، وظل يعب من سيجارته على مهل، ثم أطفأها بحركة عفوية من يده دون أن ينظر إليها، بينما ظل تيسير صامتا ينظر إلى خيط الدخان الرفيع الصاعد من بقايا سيجارة ممدوح.

واسترسل ممدوح وهو ينظف أصبعيه من غبار المنفضة:

- وعندما عدت إلى عملي الإداري في المصنع وجدت وسط العمال يغلي على أثر توقيع الاتفاق، وازداد الغليان بعد فك الارتباط الثاني.

ولم يكن بالإمكان الوقوف موقف المتفرج أمام وضع كهذا، ورغم أننا لم نكن محسوبين من فئة العمال إلا أنني قررت مع بعض الرفاق المشاركة فيما يجري، لأن الأمر لم يكن مجرد قضية نقابية، بل قضية وطن موضوع في مزاد علني.

ومع بداية الإضرابات بدأت السلطة موجة من الاعتقالات بين القيادات النقابية. وذهبت على الفور لزيارة والدي في قرية "ميت غمر" ومنها سافرت إلى الإسكندرية دون المرور بالقاهرة، لأنني كنت أعرف بأنهم لن يتأخروا كثيرا في المجيء لإلقاء القبض علي. وفي اليوم الثاني اتصلت بي زوجتي هاتفيا

لتخبرني بأنهم يبحثون عني. ومكثت لدى صديق في الإسكندرية، فقد كان الحصول على تأشيرة خروج أثناء إجراءات المحاكمة أمرا مستحيلا وعندما صدر على حكم بالسجن ثلاث سنوات صار الأمر أكثر استحالة. ولكن ظلت هناك مخاطرة واحدة مقبولة، لأن في حالة نجاحها سأجد نفسي خارج الحدود دونما حاجة إلى تأشيرة خروج، فجمعت متاعي وألقيت بنفسي في إحدى سيارات الأجرة العاملة على الخط البري بين مصر وليبيا.

كان الأمر متوقفا على مدى نجاحي في تخطي الإجراءات الإدارية الروتينية في بوابة الخروج المصرية بمرسى مطروح.

وعندما وصلنا إلى نقطة التفتيش كانت الساعة قد جاوزت الثانية بعد منتصف الليل، ويبدو أن رجال الجوازات المصريين قد ملوا في تلك الساعة المتأخرة من إجراءات التدقيق، كما أنه لم يكن في ذلك الوقت ما يدعو إلى التشديد على بوابتي الحدود. ولهذا وجدت نفسي في أقل من نصف ساعة أخرج من البوابة الأولى وأدخل إلى الثانية. ومن هناك بدأت أولى خطواتي نحو "ديجون" .

ورفع تيسير - الذي كان مستغرقا في الاستماع إلى ممدوح رأسه إلى أعلى معلقا:

- وفي "ديجون" لم تنته القصة بعد.

ونهض ممدوح، وأخذ يذرع الحجرة متفحصا محتوياتها. وكأنه يكتشفها لأول مرة. ثم اتجه نحو النافذة الصغيرة المطلة على الفناء الكبير الذي يتوسط مباني المدينة الجامعية. وظل فترة واقفا يطل برأسه خارج النافذة، ثم أقفلها واستدار نحو تيسير قائلا:

- لنخرج على الأقل "نشم الهوا".

ولم يجبه تيسير بل نهض ليرتدي ملابسة في صمت.

بينما ظل ممدوح ينتظر متلهيا بقراءة عناوين بعض الكتب المصفوفة على أرفف مكتبة تيسير الصغيرة. وبعد بضع دقائق كانا يعبران الفناء الكبير الخالي من المارة فيما عداهما.

(6)

بدأ الصيف مبكرا هذا العام. بسبب الجفاف الذي بدأ منذ منتصف الربيع، فبلغت درجة الحرارة في "ديجون" الواقعة في منخفض إقليم "بورغونيا" حدا كبيرا من الارتفاع لم تبلغه منذ سنوات بعيدة.

لم يعد مقهى "شيل" الصغير - بجدرانه الزجاجية وبابه الوحيد المجاور لمحطة الوقود المطلة على شارع " غابريال" - مكانا مناسبا للسهر في ليالي الصيف. بينما أخذ مقهى "لاكربول" - الواقع عند زاوية تقاطع شارع الجامعة مع شارع " غابريال" على الطرف الغربي من السهل الأخضر- يغص على أتساعه برواده من الطلبة، فانتشرت المقاعد على ناصية الشارع إلى اخر نقطة تصل إليها أضواء المقهى الزجاجية. أخذ البعض يعيد تفاصيل ما حدث في الاجتماع الذي عقدته اتحادات الطلبة العرب منذ عدة أيام على إثر دخول الجيش السوري إلى لبنان، وما جرى في هذا الاجتماع من جدل تطور إلى التشابك بالأيدي بين هشام خلف المؤيد لدخول الجيش السوري في لبنان وتيسير سمعان المعارض له. ثم مقاطعة معظم الطلبة العرب هشام خلف شخصيا.

كان كل من أنيس ومنال وطلال سعيد وممدوح شعراوي يجلسون في ناحية من المقهى عندما انضمت إليهم هدى نصراوي الطالبة اللبنانية المعروفة بنقاشاتها التي كثيرا ما انتهت بمشادة حادة مع من يختلف معها في وجهة النظر.

قال ممدوح مازحا وهو يقدم لها مقعدا:

- " حا نبتدي الخناقة فورا" .

قالت هدى نصراوي ضاحكة:

- " لا دخيلك " أنا عائدة إلى لبنان يوم السبت القادم ولا أريد مزيدا من العداوات .

وما أن استراحت هدى في جلستها حتى أضافت قائلة وهي تشير إلى هشام خلف الذي يجلس مع صديقه خالد أنور على بعد بضعة أمتار منهم في مكان مواجه:

- لو قيض لي أن ألتقي به في لبنان لما ترددت لحظة واحدة في قتله.

قال ممدوح شعراوي:

- من يدري. قد تلتقين به. سيعود إلى سوريا قريبا بعد أن قدم أطروحة الدكتوراه. وهناك ينتظره التجنيد الإجباري.

فعلق أنيس قائلا:

- هذا تصور مبالغ فيه.

فردت هدى نصراوي:

- كل شئ ممكن ولا سيما في بلادنا.

فابتسم أنيس قائلا:

- قد تلتقون في لبنان ولكن في خندق واحد.

قالت هدى:

- أبداً . أبداً.

فقال أنيس بلهجة هادئة لا تتغير أبدا مهما كانت درجة حرارة النقاش:

- أليس كل شيء ممكنا في هذا العالم العربي؟.

فأطفأت هدى نصراوي سيجارتها في المنفضة حتى غاصت أصابعها الرقيقة المرتعشة في رماد المنفضة محاولة السيطرة على عصبيتها المعروفة بها أثناء النقاش، ثم قالت موجهة الحديث إلى أنيس:

- لقد سبق لك أن حملت السلاح يوما في صفوف الثـــورة. فهل حصل بعد ذلك أن التقيت بأولئك الذين حملت ضدهم السلاح - في خندق واحد؟.

فقال أنيس كامل وهو يتحاشى التحديد في حديثه:

- ربما لم ألتق بهم أنا. ولكن رفاقا لي التقوا بهؤلاء أو بمن كان ينبغي أن نحمل السلاح ضدهم.

لم يكن هشام خلف يسمع هذا الحديث الذي يدور على بعد أمتار منه. فالضوضاء طاغية على كل شئ ولم يكن هو أيـــضا يستمع إلى أحد. حتى خالد أنور صديقه الجالس بجانبه .

وقد بدا هشام معزولا وسط الجميع، فلم يأت أحـــد مـــن الطلبة العرب الكثيرين الذين يعرفهم للسهر معه في آخر ليلة له في "ديجون"، وبدت له هذه المقاطعة لا مسوغ لها. فهو لم يفعل شيئا سوى دفاعه عن عبور السوريين حدود لبنان التي صنعها الفرنسيون والانجليز ضمن مخططهم التاريخي لتقطيع أوصـــال الأمة العربية.

ولم يستطع هشام خلف احتمال الصمت الذي يحيط بـــه، فالتفت نحو جليسه خالد أنور وهو يقول بسخرية:

- أن يتفق اليسار واليمين الفرنسي حول ما يسمونه الشخصية اللبنانية والحدود اللبنانية فهذا أمر مفهوم، لأنهم منسجمون مع أنفسهم ولا يريدون أي تغيير للكيانات الهزيلة التي صنعها أجدادهم لعزل لبنان عن سوريا وسوريا عن العراق.. أما الشيء غير المفهوم أن يلتقي معهم معظم الطلبة العرب في هذا المنظور، ويقفون على المنبر نفسه الذي كان يقف عليه أولئك، ليدينوا ما يسمونه الغزو السوري للبنان.

ولم يعلق خالد أنور بشيء. وخيم الصمت على الاثنين بعض الوقت ثم قطعه خالد أنور متسائلا:

- ماذا تم بينك وبين "كاترين"؟.

فقال هشام وهو يصحو من شروده، ويتناول جرعة من كاس الجعة ويشعل سيجارة:

- " خلص" انتهي كل شئ.

قال خالد أنور:

- بما أنها ليست معك هذه الليلة. فهذا لا يعني إلا أن كل شئ قد انتهى لكن " ما فينا نعرف اللي حصل".

فرد هشام وهو يغتصب ابتسامة:

- يعني كلانا رجع إلى أهله.

وعلق خالد أنور قائلا:

- ولكنها كانت دائما عند أهلها.

فقال هشام دون أن تفارق شفتيه الابتسامة السابقة:

- إذن أنا الذي عاد إلى اهله .

فقال خالد أنور وهو يربت على كتف هشام ممازحا:

- لا تحمل هما يا " دكتور" هشام. غدا ترجع إلى الشام وتجد ألف حسناء، ولن تملك ساعتها إلا أن تغرق في حب إحداهن إلى أذنيك.

فقال هشام خلف ضاحكا:

- "يا زلمي مالك قصص غير علحب ".

فرد خالد قائلا:

- "معلوم" هذا آخر ليلة في "ديجون" فعلام تريدنا أن نتحدث إذن؟ عن السياسة والعرب " يا زلمي بلاش وجع راس".

فقال هشام خلف:

- إذا تركنا السياسة والعرب. فماذا يتبقى لنا؟.

قال خالد أنور وهو يشير بيده إلى حيث تجلس مجموعات من الطلبة العرب:

- ها هم أمامك "بدهم شئ واحد" وهو أن تخرج سوريا من لبنان.

وهنا قال هشام خلف وهو يعدم سيجارته بعصبية:

- " شو. تطلع سوريا من لبنان. الله". ما أيطلع سوريا من لبنان الله".

وتعالت في هذه اللحظة أصوات وتصفيق حاد لفت انتباه معظم الجالسين. فقد كان قارو ممسكا بورقة بيضاء متظاهرا بتلاوة ما فيها، بينما أخذ عصمت شريف يصفق وهو يصيح قائلا:

- استمعوا إلى المؤرخ الكبير وحجة زمانه الأستاذ الفاضل قارو.

واستمر قارو بلهجته الساخرة:

- وكانت سوق البنات في "ديجون" تفتح أبوابها طوال فصل الصيف وتقفل في آخر شهر سبتمبر. فيسود طوال الفترة التوتر ويقل اهتمام الناس بالسياسة ويشمخون عن الرياسة. فيصبح هم الجميع مطاردة الحسناوات في المقاهي و" البارات"، ويزداد الصراع بين العرب وغيرهم من الملل.

ويقول الرحالة ابن شخبوط الذي زار "ديجون" في أواخر القرن العشرين:

- إن السوق في هذه المدينة كانت ليومين. يوم للعرب ويوم لغيرهم من الأجناس الإفريقية والآسيوية. ولكن مع مرور الأيام وازدياد عدد العرب المهاجرين من شمال أفريقيا والهاربين من لبنان، فتكاثروا وتناصروا فأصبح للعرب يومان. يوم للعرب الأفارقة وآخر للعرب الآسيويين !!.

وانفجر هشام خلف ضاحكا وهو يستمع إلى قارو، ثم قال معلقا:

- " الله يحرق سماك يا قارو" لو لم يكن في مدينة "ديجون" قارو لا أعرف كيف ستمر هذه السنوات.

وطغى في هذه اللحظة على صوت الجميع ضجة وصياح صاعدان من الطابق تحت الأرضي وهو عبارة عن صالة رقص. شاهد الجميع عدة أشخاص يصعدون السلالم متشابكي الأيدي، يتبادلون اللكمات والشتائم بلهجة عربية دارجة وبلغة فرنسية طلقة .

غير أن أحدا لم يول اهتمام لهذا الشجار. فمثله يقع عدة مرات في الليلة الواحدة، والسبب واحد في أغلب الأحيان.

وشاهدت هدى نصراوي هشام خلف ينهض من مكانه وقد تحلق حوله عدد من الأشخاص فقالت:

- يبدو أن ساعة رحيله قد حانت. ها هي بطانته تتحلق حوله، وكأنه ذاهب إلى حطين!.

فعلق أنيس:

- على كل حال. ليس فينا من هو راجع لتوه منها!.

قالت هدى نصراوي:

- ولكن أنا ذاهبة إلى معركة لبنان.

وتدخل ممدوح شعراوي قائلا:

ـ رغم كل الذي تقولينه عن هشام خلف فإنه محكوم عليكما بالقتال معا وليس بالاقتتال.

والتفت أنيس فشاهد هشام خلف يقف مترددا بعد أن فرغ من توديع بعض الأشخاص المحيطين به. فعرف أن هشاما يريد توديعه ولكنه يتردد في المجئ لأن أنيسا كان محاطا بكل هؤلاء الذين لا يكنون أية مودة لهشام.

ونهض أنيس متجها نحو هشام الذي التقاه في منتصف الطريق.

قال هشام وهو يضع يده على كتف أنيس ممازحا:

ـ لو كنت قد سافرت دون أن أراك لعدت مرة أخرى من سوريا لأودعك .

فقال أنيس:

ـ ليس هناك ما يمنعك من توديعي الآن.

فرد هشام ضاحكا:

ـ كنت مترددا في الذهاب إليك وأنت محاط بهؤلاء الصقور.

فقال أنيس:

- العرب في مواجهة بعضهم كلهم صقور. ولا يتحولون إلى حمائم سلام إلا في مواجهة الآخرين !.

فرد هشام:

- " إليك حق" ثم طأطأ رأسه إلى أسفل وهو يتمتم: لقد ظلموني جميعا.

كان هشام خلف يرى في مقاطعة معظم الطلبة العرب له في "ديجون"، والحملة التي قادها بعض الطلاب عليه - ظلما ما بعده ظلم. لأنه يجد في دخول الجيش السوري إلى لبنان - لتسوية أوضاع شاذة - أمرا لا تثريب عليه. بل انضمام لبنان إلى سوريا لا ينبغي أن يثير ثائرة هؤلاء العرب الذين يمضغون اسم الوحدة العربية ليل نهار في "ديجون".

قال أنيس:

- ها أنت عائد إلى الشام وكل ما حدث سيصبح مجرد ذكريات "ديجونية"

فقال هشام بصوت شابته غلظة:

ـ ولكنها مؤلمة.

ثم أضاف وهو يدعس عقب سيجارته برجله على الرصيف الذي يتمشيان عليه:

ـ المسألة ليست مجرد أحداث وذكريات وقعت بالأمس في "ديجون" وانتهت. بل لها جذور ضاربة في عمق الأرض العربية هناك. ولا تنتمي إلى الماضي فقط، وإنما أراها موغلة في المستقبل البعيد !.

ولم يرد أنيس على ما قاله هشام، لا لأن ما قاله هشام خلف هو حقيقة لا تحتاج إلى تعليق ولكنه لم يرغب في أن يكون حديثه مع هشام في هذه الدقائق الأخيرة حول الموضوع نفسه الذي قضيا ألف يوم في "ديجون" دون أن يصلا إلى نهايته، ورغم أن أنيسا كان أقل الكثيرين خلافا مع هشام إلا أن هناك جملة من الموضوعات كان الخلاف فيها بينهما مستحكما.

ومع هذا فإن هشام خلف لا يجد نفسه مستريحا مع أي من المخالفين له في الرأي أكثر من أنيس. حتى إنه كثيرا ما يبحث عنه عندما تمر عدة أيام دون أن يراه.

قال أنيس محاولا تهوين الأمور:

- إنني على يقين من أنك ستشتاق يوما إلى كل هـذا الـذي جرى في "ديجون" .

فرد هشام وهو ينظر إلى ساعته متأهبا للرحيل:

- أتمنى أن أراك في يوم قريب في سوريا .

فقال أنيس ممازحا:

- في سوريا الكبرى .

وانفجر هشام خلف ضاحكا بصوت عال أجش يميزه عن غيره:

- لم لا إذا كانت خطوة نحو الولايات المتحدة العربية .

قال أنيس وهو يزيح يده عن كتف هشام:

- إذن سنلتقي في هذه الأخيرة.

فقال هشام:

وهو كذلك. لا عليك حتى هذه الأمنية ستتحقق. ثم كـرر عبارته المعروفة: ستصل خيول بني أمية يومـا إلـى منابـت الزيتون.

فعلق أنيس مبتسما:

- وقد يصل قبلها المظليون الإسرائيليون! .

فقال هشام وهو يعانق أنيس:

- " الله يحرق سماك يا أنيس ما راح نسمع في الشام" مثل هذا التعليقات.

وافترقا. بينما حاول هشام خلف أن يحتفظ ببقايا ضحكة على تقاطيع وجهه. ولكن أنيسا أحس في تلك اللحظة أن هشاما أراد أن يبكي ولكنه ضحك.

ووقف أنيس ينظر إليه مبتعدا عبر شارع "غابريال" خارجا من المنطقة التي تغمرها أضواء مصابيح ناصية مقهى "لاكروبول" حتى اختفى في ظلام أول منعطفات الشارع. فاستدار أنيس عائد إلى رفاقه يسير ببطء. لقد كان هشام خلف بكل مشاكله وصراعاته ومشاداته الكلامية واليدوية أحيانا، ديناميكيا يتفق معه البعض ويختلف معه آخرون. ويؤيده البعض وتفرض عليه البقية مقاطعة محكمة.

ها قد ذهب هشام من "ديجون" مثلما جاء إليها أول يوم منذ ثلاث سنوات، ولم يكن يعرف إنسانا، فلم يجد أحدا في

انتظاره في محطة القطار. والليلة يغادرها من المحطة ذاتها دون أن يكون أحد في وداعه.

وخيل لأنيس وهو راجع من وداعه على رصيف المقهى، أنه حتى لو وصلت في تلك اللحظة بالذات خيول بني أمية إلى منابت الزيتون في شمال أفريقيا، مقتلعة بسنابكها كل أنظمة بلاد العرب، لظلت في مشاعر هشام خلف بقية من مرارة !.

وما إن وصل أنيس إلى مجموعته حتى تلاشت هذه التصورات، وطغى عليها صخب المقهى.

وشاهد الجميع قارو واقفا بين أفراد جماعته يصفقون له، بينما كان يروي على طريقته الخاصة أساطيره المعروفة قائلا:

- فلما كانت الليلة المائة بعد الألف في "ديجون" اجتمع العرب في مقهى "لاكروبول" ، وتناقشوا فلم يقولوا شيئا جديدا. وتفلسفوا فلم يقنع أي منهم صاحبه. وتجادلوا فلم ينصت أي منهم لمحدثه، وتخاصموا فلم يتغلب أي منهم على قرينه في الشطط والقطعية، فباتت الأمور على ما هي عليه، وعاد هشام خلف إلى بلاد الشام!.

(7)

لم يكن مقهى "لاكروبول" عامرا هذه الليلة. فقد ذهب معظم زبائنه من العرب إلى قاعة "بو سوى" في أحد بيوت الطلبة الجامعية.

كانت هذه السهرة بمناسبة زواج عصمت شريف من صديقته الكندية "رودال". لم يكن زواج عصمت شريف أمرا يسهل تصديقه بالنسبة لغالبية من يعرفونه. ولكن ها هو الليلة عريس يتجول في القاعة بين مدعويه يتحدث مع هذا ويمازح ذاك، في محاولة منه للقيام بواجب الضيافة. وهذه أول مرة يرون فيها عصمت شريف وهو يتصرف بمسؤولية كهذه. فلم يعرفه أحد في السابق إلا معلقا ومازحا وغير مبال، وعصمت - هذا الشاب الوسيم الذي خط الشيب شعر رأسه رغم أنه لم يتجاوز الثلاثين بعد، والأنيق دائما وصاحب الحظ الوفير مع النساء - تثير شخصيته بعض التساؤلات بين الجميع. فهو دائما أنيق المظهر، وأحيانا يفأجا الجميع بامتلاكه سيارة فاخرة تختفي بعد حين، ويظهر دائما من وجوه الصرف ما لا يتناسب مع مرتبه المتواضع الذي يتقاضاه لقاء عمله حارسا ليليا في فندق البحيرة خارج مدينة "ديجون" .

ومع هذا فلا أحد لديه دليل قاطع على أن عصمت شريف يحصل على هذه الموارد بطريقة غير مشروعة.

كانت القاعة غاصة بمن فيها، صاخبة بالغناء والصياح والرقص، ورغم أن هذا الحفل لا يعني بالنسبة لقارو ومجموعته سوى قرب فراق عصمت شريف لهم إلا أنه كان في غاية النشوة. كان قارو كعادته ممسكا بكأسه مغنيا معلقا وراقصا حينا آخر. ثم لا يلبث أن يذهب إلى عصمت ويعانقه قائلا بلهجة مصرية:

- " والله آخر زمن. عشنا وشفنا عصمت عريس" !.

ينفجر بعدها ضاحكا حتى تغرورق عيناه بدموع تنحدر على وجنتيه. ولا يعرف أحد من الحاضرين أهذه الدموع من شدة الضحك وكثرة الشراب، أم أنها دموع حقيقية تطفح فوق واقع موضوعي لا يكتوي بناره في تلك اللحظة أحد آخر غير قارو.

كان من بين الحاضرين في السهرة بعض ممن لم يكن متوقعا مشاركتهم فيها. مثل طلال سعيد وأنيس كامل وممدوح شعراوي، نظرا لعدم وجود أي اهتمام مشترك بين هؤلاء وعصمت شريف. ورغم أن القاعة كانت تعج بالفتيات من

صديقات الحاضرين وغيرهن من اللائي جئن بعد أن جـــذبهن ضجيج الحفل وموسيقاه في هدأة هذه الليلـــة الـــصيفية - إلا أن منالا كانت لا تستقر على المقعد بجانب أنيس بضع دقائق حتى يأتي إليها من يطلب مراقصتها، فلما بلغ بها التعـــب حـــدا لـــم تستطع معه الاستمرار. اقتربت من أنيس شاكية:

- " أنا تعبت وبدي روح أحسن مموت من التعب".

فقال أنيس مناكفا:

- هذه سهرة عربية وأنت مليحة العرب فعليك أن تبقي حتى النهاية.

قالت وهي تدق بيدها على كتفه ضاحكة وشاكية:

- " لما بموت من التعب خلى العرب ينفعوك" !.

فرد بلهجة بين الجد والهزل:

- إذا مت فإنه سيكون أمرا مؤسفا. لكنني سأقبل به كتضحية في نهاية الأمر.

وأردف أنيس قائلا:

- ربما من الأفضل لك أن تخرجي وتجلسي قليلا في الهواء الطلق.

فقالت على الفور:

- تعال معي.

قال:

- إنني لا أحس بحاجة للخروج.

ثم التفت نحو ممدوح شعراوي قائلا:

- ربما كنت في حاجة للهواء المنعش، فأنت أيضا من بلد لا يخلو من رطوبة ولا تحتمل الهواء الجاف.

فقال ممدوح وهو ينهض بمرح:

- أنت "سوبرمان" تعيش تحت كل الظروف.

ثم مدّ يده نحو منال وهو يدعوها للخروج قائلا:

- "يا للا بنا سيبيه" مع العرب !.

وانفجر ثلاثتهم ضاحكين، وخرج ممدوح وخلفه منال بينما ظل أنيس في مكانه. وجلس الاثنان على تلة صغيرة خضراء

أمام مبنى "بوسوى" تحيط بها بعض الأشجار فتحجب عنها جانبا من أضواء المصابيح المنتشرة على جانبي الممر الممتد بين بيوت الطلبة في المدينة الجامعية.

قال ممدوح:

- إن من يرانا في هذه الساعة، وفي هذا المكان سيتصور نفسه أنه أمام عاشقين مدلهين.

فأخذت منال تضحك على سجيتها قائلة:

- طبعا. فلن تخطر بباله مسألة شم الهواء هذه.

وقاطعها ممدوح:

- كلما سمعت ضحكتك فإنني أحس بأنها خليط بين كركرة صوت طفلة ورنة صوت امرأة ناضجة مصحوبة بنغمة حزينة واهنة، وكأنها قد مرت بكل جبال العالم وأوديته قبل أن تصل إلى حنجرتك.

فقالت منال:

- أنا لا أعرف ما إذا كنت " بتقول هيدا الكلام الحلو لمراتك وإلا بتحرمها منه".

فقال ممدوح ضاحكا:

- إذا كنت في حاجة إلى دليل فما عليك إلا أن تحصلي لها على تأشيرة خروج من مصر وعندما تأتي هي إلى "ديجون" ستسمعين ما أقوله لها !.

فقالت منال:

- إنني لا أستطيع الحصول على تأشيرة دخول لنفسي فكيف لي أن أحصل على تأشيرة خروج لزوجتك.

ولم يشأ ممدوح شعراوي أن يعلق بشئ فأخرج عدة لف السجائر، وأخذ يلف سيجارته بتباطؤ بينما ظلت منال صامتة طوال اللحظة.

قال ممدوح بعد قليل وهو يحاول دفعها للحديث:

- إنك تبدين قلقة.

فقالت منال:

- لقد وعدتني هدى نصراوي بزيارة والدتي في لبنان ثم تتصل بي هاتفيا لتطمئنني على صحتها، ولكنها لم تتصل بي منذ أن سافرت، وأخشى أن يكون قد حدث لها أو

لوالدتي مكروه، ولا سيما والدتي التي لم تعد صحتها كما كانت.

فقال ممدوح:

- ليس هناك ما يدعو للقلق، فكل ما هناك أن هدى لم تتمكن من الاتصال بك هاتفيا، لأن الاتصال مع لبنان أصبح شبه مقطوع.

قالت منال:

- هناك عدة مناطق استعادت اتصالها بالخارج ولا سيما تلك التي يعسكر بها الجيش السوري.

فعلق ممدوح ضاحكا:

- " أنت عايزه هدى نصراوي" تتصل بك من مثل هذه المناطق.

قالت متسائلة:

- لماذا؟ .

قال: دواعي الثورة تمنعها من وضع أقدامها في تلك المناطق.

قالت منال وهي تزفر بصوت واهن:

- إنني لا أفهم شيئا.

فقال ممدوح:

- الثورة يا سيدتي، الثورة. ألا تفهمين هذه الكلمة ؟.

قالت وهي تطأطئ رأسها على أسفل:

- نعم إنني أفهمها. ولا أظن أحدا غيري سمعها أكثر مني ولكن.

- ولكن ماذا ؟

- لا شيء.

قال ممدوح ويده تعبث في كيس التبغ لإعداد لفافة أخرى:

- ولكنك لا ترغبين في سماعها.

قالت وصوتها يزداد انكسارا:

- بالضبط .

فقال ممدوح:

- لديك حق. إن هذه اللحظة الشاعرية ليست مناسبة لحديث في موضوع مثل هذا.

قالت وصوتها يزداد حشرجة:

- أبداً إنه موضوع يصلح للحديث في كل أوان. ولكنني أنا.

وصمتت منال لحظة في انتظار أن يقول ممدوح أي شيئ يغير به مجرى الحديث. غير أنه ظل صامتا بدوره تاركا إياها في موقف المتردد.

وفجأة انفجرت قائلة:

- إن هذه الكلمة تتدخل في كل لحظة من لحظات حياتي، وتعدل في كل كبيرة وصغيرة فيها.

فمنذ أن كنت طفلة وسماعها دائما مقترن بفقدان شيء عزيز علي. إنني لا أزل أذكر يوما فرغت فيه من اللعب مع الأطفال ورجعت إلى البيت لأسأل أمي عن أبي وكانت تلك أول مرة أطرح فيها هذا السؤال على والدتي. ولا بد أنها دهشت لهذا السؤال الذي جاء متأخرا عدة سنوات عن موعده، ولكنها لم تتردد كثيرا حينما قالت لي:

- إن أباك استشهد في الثورة. ولا أعرف لماذا خطر ببالي ذلك اليوم بالذات أن أسأل عن أبي الذي لا أعرفه. ولكنه منذ تلك اللحظة دخلت كلمة الثورة في قاموس حياتي. ولم يكن لها من معنى يومها سوى أن أبي ليس موجودا معنا، ولن يكون معنا في أي يوم آخر، وبعد أن التحق أخي نبيل بمعسكرات الفدائيين وصرنا لا نراه إلا نادرا. صرت أعي كل أبعاد هذه الكلمة. ولكنها عادت فاقترنت بمعناها السابق عندما جاء إلينا نبأ استشهاد نبيل.

وتوقفت منال برهة كانت خلالها تمرر أناملها الرقيقة تحت وجنتيها المبتلتين. ثم ازداد صوتها قوة وخلوا من أي عاطفة، وكأنها غدت تمثالا ينتصب على تلك الربوة الخضراء في تلك الساعة المتأخرة من ليل "ديجون" يروي تحت الضوء بالصوت قصة درامية لا علاقة له بها. وكأنها ليست هي تلك الفتاة الرقيقة الناعسة الطرف. واستمرت منال في حديثها:

- ولا زال في أذني صدى كلمات أخي نايف عن الثورة يوم أن التحق هو أيضا بمعسكرات المقاومة. فلما سحقته تروس الدبابات في غابة جرش، فإن معنى الثورة هذه المرة خالطته معان كثيرة، فقد كنت أعتقد في السابق أن

الثورة هي فقط ضد الإسرائيليين الذين احتلوا أرضنا. ولكنني أدركت يومها أنها أكبر من ذلك بكثير فازددت هلعا وخوفاً. إلا أنها إلى جانب ذلك ظلت بالنسبة إليَّ محتفظة بمعناها الثابت الذي هو فقدان ما لا يسهل نسيانه.

وابتلعت مليحة العرب ريقها بصعوبة، وعاد صوتها ضعيفا وهي تقول:

ـ ها أنت تعرف ما بيني وبين أنيس في ديجون، إنني واثقة من أنه يحبني مثلما أحبه. ثم بسطت يديها في الهواء لتساعدها في التعبير عما جال في خاطرها في تلك اللحظة، واستطردت قائلة بعفوية عاطفة الأنثى: كان من الممكن لهذه العلاقة أن تنتهي بالنهاية التي تعارف عليها الناس، ولكنني دون أن أدري أحببت رجلا هو أيضا يحلم بثورة لم تولد بعد.

وران على الاثنين صمت لم يقطعه سوى رنين خفيف صادر عن أساور منال وهي تجفف وجنتيها بمنديلها في حركة عفوية.

ربما كانت تلك أول مرة يجد فيها نقيب الدروع المصري السابق نفسه في مواجهة دموع امرأة فلسطينية. فبدت له منال

لحظتها ليست مليحة العرب في ديجون، ولكنها لا تعدو كونها لاجئة فلسطينية تحمل في أعماقها مأساة بالغة المرارة قدر ما تحمل عيناها الرائعتان من سواد.

وصمت الاثنان، فلم يعد لدى منال ما تضيفه، بينما ظل ممدوح شعراوي يسحب نفسا تلو الآخر من سيجارته مشيحا بوجهة إلى الجهة الأخرى، وقد فقد الرغبة كليا في العودة إلى هذا الموضوع الذي أسدلت عليه ستارة رقيقة من دموع ما زالت عينا منال الدعجاوان غارقتين في بقاياها.

وقطع هذا الصمت الثقيل حركة بعض الخارجين من المبنى، ثم سمعا وقع أقدام أحدهم قادما نحوهما. فرفعت منال رأسها مستديرة نحو القادم، ثم نهضت وهي تقول بلهفة وعيناها لا أثر فيهما للدموع:

- ها هو أنيس قد أتى.

وأحس ممدوح بأن أنيس قد انتشلهما من كآبة هذا الموقف الذي كانا فيه، وذلك بمجيئه في لحظة فقد فيها الكلام والبكاء والصمت كل المعاني. ونهض ممدوح بدوره متجها نحو أنيس معلقا كعادته:

- هل انتهت سهرة العرب بسلام ؟!.

فقال أنيس وهو يحيط منال بذراعه:

- ليس قبل طلوع الشمس.

وأحس أنيس أن منالا ليست في حالة عادية فحاول أن يتطلع إلى عينيها، ولكنها ظلت تخفي وجهها في صدره متحاشية النظر إليه، والتفت أنيس نحو ممدوح الذي أخذ يهز رأسه، ودار بين نظراتهما حوار، واستدار ممدوح مغادرا وهو يلقي بتحية الوداع المسائية المعهودة، بينما سار أنيس ومنال كلاهما يحيط الآخر بذراعه عائدين في صمت إلى البيت عبر أحد ممرات السهل الأخضر. وما أن انقطع عن سماعهما ضجيج حفلة العرس حتى سمعا صوت البوهيمي "كلودرينيه" العائد لتوه من مقهى "لاكروبول" مرددا أغنيته المعروفة:

- " لقد نسيت أن أبكي هذه الليلة أيضا".

(8)

لم يبد ضابط التحقيق الكومسير "بول جيرمان" مقتنعا بأن الأمر كان مجرد مصادفة عندما كان يستجوب تيسير سمعان في

مقر مركز شرطة "ديجون"، فقد دخل تيسير سمعان أحد بيوت الطلبة في المدينة الجامعية لزيارة أحد أصدقائه، وفجأة وجد نفسه أمام اثنين من رجال الأمن يعترضانه في الطابق الأول ويقتادانه إلى السيارة الواقفة أمام المبنى. وبعد وقت قصير كان يجلس في مواجهة ضابط التحقيق بول جيرمان الذي بادره بلهجة حادة: حسنا. لم يكن في حوزتك سلاح. ولكن هل بإمكانك أن تخبرنا عن الطريقة التي وضعتها لاحتجاز الرهائن في هذه الحالة؟ .

وظل تيسير صامتا لا يرد ولا يعرف ما الذي حدث بالضبط.

وكرر ضابط التحقيق السؤال نفسه، وببطء شديد خشية أن يكون المتهم لا يفهم الفرنسية جيدا .

وهنا قال تيسير سمعان متسائلا:

- هل تسمح لي أن أسألك أنا بدوري؟

فقال "بول جيرمان":

- ليس من حقك أن تستجوبني.

وانفجر تيسير بعفوية قائلا:

ـ هل لي أن أعرف لماذا اعتقلتموني ولم تحققون معي. وما قصة الرهائن هذه؟.

قال ضابط التحقيق:

ـ أرجوك دعني من التمثيل وأجب عن سؤالي.

فقال تيسير:

ـ إنني لا أعرف هذه المهنة. أرجوك بحق السماء أن لا تعتبر هذا استجوابا ولكنه استفسار عما يجري حولي.

قال "بول جيرمان":

ـ حسنا سأعتبر نفسي مغفلا، وأخبرك بما تعرفه أنت أكثر مني.

وصمت تيسير منصتا خشية أن يعكر مزاج الضابط. بينما استمر ضابط التحقيق:

ـ أنت تعرف أن بيت الطلبة " أوتير" محجوز الآن وخال من الطلبة، إذ تقيم فيه فرقة الفنون الشعبية الاسرائيلية المشاركة في أعياد النبيذ بديجون، وابتسم ضابط التحقيق وهو يقول: كم يبدو الإنسان بسيطا وهو يروي لآخر بجد

أحداث قصة يعرفها هذا أكثر منه. ولكن أعذرني لقد قبلت بهذا الدور.

كان تيسير لا يتمالك نفسه من الدهشة أمام تشابك أحداث الموقف وتعقيداته، وظل فترة صامتا يقلب نظارته بين يديه حتى خيل لضابط التحقيق أن تيسيرا في طرقه للإدلاء باعتراف كامل ومفصل. ولكن بعد برهة رفع تيسير رأسه قائلا: أنا أيضا سأروي لك قصة ولكنها تستند على الشهود والأدلة.

- اروها إذا كانت لها علاقة بالموضوع.

- لقد تركت "ديجون" منذ ثلاثة أسابيع، وذهبت ككثير من الطلبة لقطاف العنب في حقول "بورغونيا"، ولم أعد إلا في ساعة متأخرة من ليلة البارحة . فنمت حتى الصباح، ثم خرجت بعد ذلك أبحث عن أصدقائي الذين تركتهم يقطنون بيت "أوتير" ولم أكن أعلم بوجود اسرائليين في هذا البيت ولا في مدينة "ديجون" .

- وإذا ما علمت بوجودهم في هذا البيت فهل كنت ستذهب؟.

- بالطبع لا .

- ولماذا ؟.

ـ لأنكم ستعتقلونني.

ـ لهذا السبب فقط. أم إنك ترفض اللقاء بهم.

قال تيسير محاولا تحاشي النقاش حول هذه النقطة:

ـ على أية حال، لست مسؤولا عن تصوراتك الشخصية.

فقال " بوب جيرمان":

ـ إنني لم آت بهذه التصورات من العدم. ولكن على ضوء آرائك المعروف بها بين صفوف الطلبة.

وأحس تيسير بأن طريقة الاستجواب بدأت تسير بشكل يراد منه تسجيل موقف عليه أكثر من تحقيق حول تهمة، فقال:

ـ سيدي نحن بصدد تحقيق ولسنا في جلسة حرة لتبادل الآراء.

فزم ضابط التحقيق شفتيه متمتما، ثم قال وهو يقفل ملف التحقيق:

ـ سنستكمل التحقيق غداً.

(9)

رغم نشاطات تيسير سمعان ومعارفه الشخصية التي لا حصر لها بين صفوف الطلبة، فإنه لم تقم أية مظاهرة طلابية للمطالبة بإطلاق سراحه. نظرا لغياب معظم الطلبة ورؤساء الاتحادات الطلابية بسبب العطلة الصيفية.

كان طلال سعيد يقول لمن حوله من الجالسين في مقهى "لاكروبول":

- لقد اختاروا اللحظة المناسبة لاعتقاله.

وتساءل ممدوح شعراوي:

- ولكن ما التهمة التي اختلقوها له؟.

فرد راغب مهداوي الذي خرج منذ يومين فقط من المستشفى على أثر حادث الاعتداء الذي وقع عليه من طرف بعض المجهولين في الأسبوع الماضي:

- لا بد أن يكون أحد من هؤلاء الذين في خصام دائم معه قد وشى به إلى الشرطة الفرنسية.

قال طلال سعيد:

- إنني أستبعد أن تكون " سارة ديفيد" قد لعبت دورا في هذه القضية .

فقال ممدوح شعراوي:

- كنت أشك دائما بأن هذه المرأة لها علاقة ما بالمخابرات الاسرائيلية.

قال راغب مهداوي وهو يرفع رأسه إلى أعلى كمن تذكر شيئا:

- يجوز. بل هذا صحيح. وهي التي كانت وراء شائعة أن تيسير كان موجودا في مدينة ميونيخ أثناء حادث ميونيخ.

وقاطعته منال التي ظلت صامتة طوال النقاش:

- كلما التقت عيناي بعيني هذه المرأة أحس بأنني أمام امرأة ذات مهمة محددة ودور ما، لا علاقة له بمعاني الصداقة والعواطف الإنسانية.

ولم يعلق أنيس بشئ على هذا الموضوع. فأردفت منال متسائلة بلهجة منكسرة دون أن توجه حديثها لأي من الجالسين: "يعني ما فينا نعمل شيء" .

فقال طلال:

- لقد اتصلنا بمن وجدناه من رؤساء الاتحادات الطلابية واتفقنا على أن يذهب وفد من هؤلاء إلى البلدية، وعلى ضوء ما سيحصلون عليه من إجابة سنتحرك بقدر ما نستطيع.

لم يكن حديث كل الذين يوجدون في هذه الساعة في مقهى "لاكروبول" يدور حول موضوع اعتقال تيسير سمعان فقط، فمجموعة "قارو" - التي تغيبت عنها "سارة ديفيد" على غير عادتها هذا اليوم - تتحدث عن موضوع آخر يشغل بال مدينة "ديجون". إنه فوز فرقة الفنون الشعبية الاسرائيلية بالجائزة الأولى لمهرجان النبيذ.

قال عصمت شريف في سخرية:

- لقد كانت الجائزة مرصودة للفرقة الاسرائيلية قبل أن تصل إلى "ديجون" .

فرد "قارو" قائلا":

- ابحثوا عما شئتم من تفسيرات. فهم لا يعرفون إلا أن ينتصروا، إلا أن يفوزوا، ونحن علينا أن نبحث ونفسر ونسبب.

وشد هذا الحوار انتباه راغب مهداوي، فاستدار نحوهما قائلا:

- إن الرقصات التي قدموها كانت في الحقيقة رقصات فلسطينية.

فرد عليه قارو ساخرا:

- ولتكن كذلك. فالجائزة للاسرائليين وللعرب الحجر! .

وفجأة انتابت راغب مهداوي موجة الغضب المعروف بها بين الجميع، فقال وهو لا يكاد يسيطر على نفسه:

- وهل يستحق العرب غير هذا؟ إن الاحتقار يعد في نظري احتراما لا يستحقونه قياسا بما وصلوا إليه من تدن !.

فقال طلال سعيد:

- لماذا كل هذا التحامل عليهم ؟.

فرد راغب مهداوي بعصبية أكثر وبلهجة عراقية:

- "لا دير بالك" لا تدافع عنهم.

ثم اقترب من طلال أكثر وهو يفتح راحة يده ويمدها في تساؤل:

- وهل وصلت حالة التدني بآخرين في التاريخ إلـــى الحـــد الذي وصل إليه العرب. حتى العاهرات يرفضن ممارسة مهنتهن معهم رغم ما يدفعونه من مقابل لذلك!.

رغم أن الجميع سمع ما قاله راغب مهداوي إلا أن أحـــدا لم يعلق بشيء. فلربما وجد كلامه استحسانا في نفس الغالبية، أو قد يكون هذا الصمت مرجعه إلى كـــون الجميـــع يعرفـــون أن راغب مهداوي تأتي عليه لحظات يبدو فيها عصبيا إلـــى الحـــد الذي يمسك فيه بخناق من يلقي عليه بتحية المساء. كثيـــرا مـــا يبدو راغب مهداوي قاسيا على العرب إلى الحد الذي يكـــرههم ويكره نفسه.

وفاجأ راغب مهداوي الجميع بقوله:

- كنت قد قررت مغادرة مدينة "ديجون" خلال هذا الأسبوع، ولكنني سأنتظر حتى أعرف ماذا سيتم في قضية تيسير.

فقال ممدوح:

- أمللتنا نحن أم المدينة ؟.

فرد راغب:

- لقد مللت المدينة وبعض الوجوه أيضا.

فقال طلال سعيد:

- أرجو أن لا نكون من ضمن هذه الوجوه المملة.

فوضع راغب مهداوي يده على كتب طلال سعيد وهو يقول في شبه اعتذار:

- لا أبدا. لست من ضمنهم " يا أبو سعيد" ولا بقية هؤلاء الحاضرين.

فقال طلال:

- حتى وإن كنت قد مللت البقاء معنا، فإننا سنظل دائما نحس بمكانك شاغرا بيننا.

قال راغب مهداوي:

- على أية حال، إذا نقص عدد العرب في "ديجون" واحدا فسيعوضه عشرة في مدينة أخرى.

كان طلال يرى في راغب مهداوي - هذا الشاب العراقي القصير القامة الكثير الشجار الممتلئ حيوية والمتعصب للعرب والناقم عليهم في آن واحد - أحد رموز جيل يتمزق بين الرغبة والزجر، ويسحقه واقع مرير ومستقبل غير واعد.

(10)

رغم أن خبر إطلاق سراح تيسير سمعان ورؤيته خارجا من مركز شرطة "ديجون" قبيل العصر صار أكيدا إلا أن أحدا لم يراه في مقهى لاكروبول هذه الليلة. فقد ذهب بصحبة طلال سعيد وأنيس كامل إلى بحيرة "ديجون" التي تقع في طرف منعزل عن المدينة، حيث جلسوا ثلاثتهم في تلك الساعة من الليل بالقرب من الشلال الصغير. وأخذ تيسير يروي تفاصيل ما جرى له خلال اليومين الماضيين، ثم قال:

- لقد أحسست أن تركي " لديجون" شرط للإفراج عني رغم أنهم لم يقولوه بصراحة.

وتساءل طلال:

- وهل قبلت هذا الشرط ؟.

- إنني لم أقبل به ساعتها، ولكنني أقول لك الآن: لقد قررت بالفعل أن أترك فرنسا، فلا بقاء لي هنا؛ لقد أتممت مرحلة الليسانس كما تعلم، ولا رغبة لي في متابعة دراستي العليا. وقبل كل هذا وذاك فإن هناك مكانا آخر أحس بأنني سأكون فيه أكثر فاعلية مما لو بقيت في "ديجون".

فقال طلال بعفوية:

- إلى أين ستذهب ؟.

وتحاشى تيسير الإجابة، ولم يشأ طلال أن يسترسل في تساؤلاته، فالتفت نحو أنيس وهو يقول:

- " العمى يا زلمي العالم كله عمال بيرحل عن "ديجون". ما فيه حدن غيري أنا وأنت بيتبقى في هالبلد ".

فقال أنيس:

- نحن أيضا سنتركها يوما، ولكن ترى من منا سيودع صاحبه في محطة القطار.

ثم أضاف أنيس ضاحكا:

- إنني أكاد أراك وقفا في نهاية المحطة تلوح لي بيدك، بينما يبتعد بي القطار رويدا حتى تختفي عني أنت والمحطة ثم مدينة ديجون.

وظل طلال صامتا على غير عادته، متشاغلا بسحب ما تبقى من أنفاس في سيجارته قبل أن يقول:

– " عقبال عندكو يا شباب" أنا و"أفلين" سنعقد قراننــــا فـــي الأسبوع القادم.

قال تيسير وقد فوجئ بالنبأ :

– مبروك مقدما.

بينما أضاف طلال:

– وسنترك "ديجون".

فقال أنيس مازحا:

– وماذا أيضا ؟.

فرد طلال قائلا:

– وستودعني أنت في المحطة.

فتساءل تيسير:

– إلى أين ؟

– سنذهب إلى قرية صغيرة تقع في إقليم النورماندي حيـــث سنعمل بالتدريس معا في مدرسة واحدة.

قال أنيس وهو يحاول أن يضفي علـــى ســـؤاله طابعـــا روتينيا رغم أنه لم يكن كذلك:

- ألم تتقدم بعد بطلب الحصول على الجنسية الفرنسية ؟.

ولم يعرف أي من أنيس أو تيسير السبب الذي جعل طلال سعيد لا يجيب على هذا السؤال نفيا ولا إيجاباً. فهل تقدم طلال بالفعل بطلبه لنيل الجنسية الفرنسية، ولكنه لا يريد أن يعلن لهما ذلك، لأن هذا قد لا يعني سوى القول إنه لم يعد ينتمي إليهما، وأن ليست لهم أية قضية مشتركة، وأن وجوده بينهما في هذه اللحظة ليس إلا من قبيل واجب الصداقة، ولا علاقة له بتلك المعاني الأخرى. أم ترى أنه ما زال مترددا في تقديم طلب الجنسية، وعليه لا يريد أن يعطي إجابة قاطعة قد تدخله في دائرة التزام وهو الرجل الذي قضى نصف ما مضى من حياته بين دوامة الالتزام وزنزانات سجن المزة.

وقطع تيسير سمعان سلسلة هذه التداعيات في ذهن أنيس، ولعله أراد أيضا أن يجد مخرجا من طوق الصمت الذي لفهم ثلاثتهم.

فقال :

- إذا كنت تنوي إقامة حفل فإنني سأؤجل سفري حتى نهاية الأسبوع.

فرد طلال:

- إن لم تكن الحفلة من أجل الزواج فستكون حفلة وداعية لنا ولك وأيضا.

كان صوت الشلال الاصطناعي وهو النشاز الوحيد في هذا الهدوء الذي يلف المكان من حولهم بينما تلألأت على الضفة البعيدة المقابلة من البحيرة أضواء فندق البحيرة، غير أن صوت دراجة نارية قادم عبر الطريق الدائري الصاعد نحو المدينة بدأ يطغى على هدوء المكان.

واقتربت الدراجة النارية حتى صارت بمحاذاتهم، ثم توقفت فجأة وقال صاحبها وهو يترجل:

- " الله دول برضو موش جماعتنا" .

وعرف فيه الثلاثة عصمت شريف الذي ما إن رأى تيسيرا حتى صافحه بحرارة قائلا:

- " أنا مبسوط اللي بشوفك خارج من ثاني من عند اللي ما يتسموش".

لم تكن هناك أية اهتمامات ولا روابط خاصة تجمع عصمت بهؤلاء الثلاثة مثل تلك التي تربطه بمجموعة "قارو".

ولربما كان أنيس هو أكثر هؤلاء الثلاثة مودة أو استلطافا لعصمت شريف، وكثيرا ما كان يردد:

ـ إن عصمت رغم كل ما فيه، فإنه يأتي في بعض الأحيان بتصرفات غاية في الذوق والأناقة.

وقد يكون هذا هو السبب الذي يكمن خلف تلك الحرارة التي يبديها عصمت شريف كلما صافح أنيسا. وكأنه يحس بمشاعر الاستلطاف التي يكنها له أنيس.

جلس عصمت قبالتهم وهو يتباطأ في إشعال سيجارته، فليست هناك موضوعات مشتركة بينه وبين هؤلاء. كما اكتشف أنها هذه هي المرة الأولى التي يجلس فيها منفردا في مواجهة هؤلاء الثلاثة منذ أن عرفهم في "ديجون" قبل ثلاث سنوات، وبادره أنيس قائلا:

ـ يبدو أنك راجع من العمل.

فقال عصمت الذي يعمل حارسا ليليا في فندق البحيرة:

ـ هذا آخر أسبوع لي في العمل.

وسأله تيسير قائلا:

- أتنوي السفر بعد ذلك ؟.

كان الجميع يعلم أن عصمت شريف قد قرر الهجرة إلى كندا بعد زواجه من صديقته الكندية.

فأجاب عصمت:

- سنسافر في خلال الأسبوعين القادمين.

وقاطعه طلال مازحا:

- إذن أنت قد صرت الآن كنديا.

فرد عصمت وهو يدفع بكلتا يديه شيئا وهميا إلى الأمام :

- " ياعمي خلصنا".

وتدخل أنيس متسائلا:

- ومم تخلصت ؟.

فرد عصمت بعفوية:

- " من كل حاجة ".

فقال تيسير:

ـ يجب أن تؤدي الخدمة العسكرية قبل أن تتخلى عن الجنسية المصرية !.

فقال عصمت بلهجة هزلية:

ـ " خدمة إيه، وعسكرية إيه ياجدع أنت. ما خلاص ما فيش حرب ولا حاجة، أهم بيعملوا اتفاقيات وحايبقى العالم كله سمن على عسل".

ثم طفق يضحك بصوت عال.

فتساءل طلال سعيد:

ـ وهل تعتقد أن هذا جيد ؟.

فرد عصمت على الفور:

ـ طبعا لا .

وتدخل أنيس مرة أخرى موجها سؤاله إلى عصمت:

ـ ولكنك حسب اعتقادي لم تكن راضيا عما كان موجودا في السابق بدليل أنك قد تركت مصر. ولست راضيا عما هو موجود الآن. فعم تبحث ؟.

فقال عصمت مبتسما:

– " أنا برضو كنت عارف أن السؤال ده حاييجي من ناحيتك أنت".

ثم أردف قائلا:

– "ده سؤال "عايزلو" قعدة. وأنا عايز أرجع البيت حالا".

وتذكر أنيس أنه سمع عصمت شريف في أحد الأيام يثرثر مع "سارا ديفيد" على المائدة المجاورة راويا لها أطوار حياته، وأنه ينتمى لأسرة عريقة في مصر الجديدة. ونهض عصمت وهو يقول:

– " عن إذنكم يا جماعة".

ربما لم يكن أي من الثلاثة يتوقع نقاشا بهذا الجد مع عصمت شريف نجم مجموعة "قارو" العابثة.

قال طلال وهو يمد يده نحو عصمت مودعا:

– مع السلامة أيها الكندي.

فرد عصمت ويده لا تزال ممسكة بيد طلال:

– لا تنس أننا كنا في يوم مضى مواطني دولة واحدة.

ولم يرد طلال سعيد بشيء بينما علق أنيس قائلا:

- ومن يدري فقد تجدان نفسيكما مرة أخرى مواطنين في تلك الدولة نفسها !.

فقال عصمت وهو يلتفت نحوهم متجها نحو دراجته:

- "لا، أنا وهو راحت علينا".

وعلا صوت محرك الدراجة النارية ليطغى على ضحكة عصمت شريف المميزة بطلاوتها.

(11)

فوجئ أنيس لدى دخوله إلى المنزل بمنال تندفع نحوه منتحبة دون أن تقوى على نطق كلمة واحدة، وقد ضاع صوتها تماما.

فأخذ يحاول تهدئتها، وبعد جهد استطاع أن يفهم منها أن هناك أمرا ما بخصوص والدتها.

وتساءل مستوضحا:

- ماذا جرى لها؟.

قالت منال وهي تجلس متهالكة على أحد المقاعد:

- لا أعرف ربما تكون قد توفيت فقال وهو يجلس على الأرض أمامها ما هذا الهذيان. هل هناك شخص يفعل بنفسه كل هذا الذي فعلته بنفسك لمجرد أنه يعتقد أن والدته ربما تكون قد توفيت.

وبعد أن هدأت قليلا قالت بصوت أبحه البكاء:

- لقد اتصلت بي هدى نصراوي هاتفيا من لبنان وأبلغتني أن والدتي أصيبت بطلق ناري أثناء تراشق بالنيران جري في الحي الذي تقطنه. ونقلت على أثر ذلك إلى المستشفى، ولكن هدى لم توضح لي شيئا بخصوص حالتها، وهذا ما يجعلني أشك في أن تكون والدتي على قيد الحياة.

وأخذت عيناه تدوران في الحجرة فلاحظ أن حقائب منال قد تم إعدادها فقال دون أن تفارق عيناه الحقيبتين المسندتين على الحائط بجانب النافذة:

- هل قررت السفر؟.

- غدا صباحا.

فطأطأ رأسه إلى أسفل، ولاذ بالصمت فقد داهمه الحدث بشكل مفاجئ لم يكن يتوقع حدوثه بهذه السرعة، فوجد أن

عشرات المواضيع والأسئلة والأشياء الأخرى التي كان ينـــوي التحدث بها إلى منال خلال الأيام والشهور القادمة تتكدس كلهـــا خلال ليلة واحدة وتتزاحم على الأولية قبل أن يتـــسلل ضـــوء الصباح عبر النافذة وتخرج منال بحقائبها إلى محطـــة قطـــار "ديجون" في رحلة قد تكون الأخيرة.

ألقى علبة السجائر الفارغة على الأرض وتنـــاول علبـــة أخرى، ثم قال وهو يحاول تخفيف حدة لحظة التوتر:

- أتعرفين أن الاقتتال في لبنان على أشده هذه الأيام.

فهزت رأسها مؤكدة ما قاله، ولكنه فهم من هذا أيضا أنها مصممة على السفر.

قال بعد لحظة صمت:

- الناس يغادرون لبنان وأنت تذهبين إليه.

وعندما لم ترد بشيء أضاف قائلا:

- يجب أن لا تستهيني بالأمور، فالناس يتساقطون بالجملـــة في الشوارع والأزقة بفعل الرصاص الطائش.

قالت بلهجة خليط من العربية الفصحى ولهجة الشام التي لا يمل سماعها أنيس:

- إذا مت فسأستريح من كل شيء، و"ما حدن راح يبكي علي" خصوصا إذا كانت والدتي قد توفيت بالفعل.

وأحس بأن لهجة منال لا تخلو من العتاب، فقال وهو يدير رأسه نحوها:

- لماذا نسيتني أنا؟.

فقالت بتلعثم وقد فوجئت بنظراته مسلطة عليها:

- أنت لم يسبق لك أن بكيت ولو مرة واحدة منذ صرت راشدا!.

قال:

- هذا صحيح. وكنت دائما أتمنى أن أبكي ولو مرة واحدة حتى أخفف عن نفسي. ولكنني الآن صرت أخشي البكاء ولم أعد أرغب في تحقق هذه الرغبة في المستقبل.

قالت مندفعة بغريزة الأنثى في حب الاستقصاء:

- ولماذا صرت تخشاه الآن؟.

فقال لأنه لم يعد في حياتي شيء يستحق البكاء إذا فقدته سواك أنت. وانفرجت شفتاها قليلا، ولم يعرف ما إذا كانت شبه

ابتسامة أو علامة دهشة. واتسعت حدقتا عينيهـا الـدعجاوان ، وأحس بدبيب يدها فوق كتفه، فأمال رأسه ليسنده على ركبتيهـا بينما انغرست نظراته في الأرض هاربا من سعير لـذة أجمـل عينين رآهما في حياته. وظل لحظة لا يعرف كم طالـت مـن الزمن بينما كانت أنامل منال تتخلل شعر رأسه صعودا وهبوطا برقة وعفوية، فأغمض عينيه، واجتاح كيانـه شـعور مخـدر فاختلط كاس اللذة بكأس الحنان.

وأحس بأن منالا قد تململت في جلستها فرفع رأسه ليجدها تمد يدها إلى احد المقاعد لتضعه بملاصقة مقعدها.

ثم قالت له بلهجة لا يمل سماعها منها:

- " اجلس هون " البلاط بارد وأنت "عم تشتكي" باسـتمرار من الروماتيزم.

فقال:

- لو تركتني هكذا لكان أحسن.

قالت بلهجة آمرة:

- لا " ياللا بلاش كلام "

ثم أردفت مع ضحكة خليط من الحزن والوهن:

- هذا أحسن من أن تموت قبلي وعندها أنا التي ستبكي قطعا.

فنهض من الأرض ليجلس بجانبها وقد شعر بانشراح يغمر نفسه المكتئبة. وأحس في تلك اللحظة أن لا شيء قادر على إخراجه من ضيقه وكآبته سوى ضحكة منال حتى وإن كانت مشوبة برنة حزن.

وقبل أن يستريح في جلسته فوجئ بمنال وهي تنهض لتأتي بمنفضة السجائر وتضع فيها العلبة الفارغة، وعقب السيجارة الذي ألقاه على الأرض، وهي تقول:

- "مانك قدران تتخلص من ها العادة".

ولم يستطع معرفة الشعور الذي سيطر عليه وهو يراقب منالا تتصرف بعفوية داخل البيت كعادتها كل يوم، وكأن حقائب سفرها ليست جاهزة بجانب النافذة في انتظار طلوع الفجر الذي لم يعد يفصلهما عنه سوى ساعات قلائل.

قال بلهجة مصحوبة بشبه اعتذار:

- لم يعد بإمكاني تغيير مثل هذه العادات ولكنني أعرف بأنها أتعبتك كثيرا.

وجلست منال وهي تستند بمرفقها على حافة الكرسي وتريح ذقنها في راحة يدها، وظلت بضع ثوان ساهمة قبل أن تقول:

- ربما كنت مخطئة.

فقال متسائلا:

- ولماذا تكونين أنت لا أنا؟.

قالت:

- بكل تأكيد أنا المخطئة، فقد دخلت إلى حياتك متأخرة ثم أخذت أطالبك أن تتخلي عن أشياء عاشت معك طويلا.

فقال:

- لا تلومي نفسك هكذا وكأنك قد ارتكبت خطأ في حقي. ثم صمت قليلا بينما ظلت منال تنظر إليه، وأحس أن نظراتها تحثه على الاستمرار، فاندفع يقول بلغة رومانتيكية: لم يكن دخولك إلى حياتي خطيئة تستحق المغفرة. بالعكس لقد دخلت إلى حياتي في وقت وقفت فيه في نهاية طريق كنت

قد سلكته، وفي لحظة اختلطت فيها جميع الألوان فساد فيها الأسود. ثم جئت أنت فكنت الفجر الذي أضاء ليل "ديجون"!.

وظلت هي تنصت إليه دون أن تتحول نظرات عينيها الواسعتين عنه.

وكثيرا ما أشدت انتباهه هذه الظاهرة لدى منال - والتي تنعدم لدى معظم النساء الأخريات - فهي تجيد الإنصات والنظر في آن واحد إلى من يطريها. وأردف قائلا: لقد غيرت أشياء كثيرة في حياتي ما كنت أظن في يوم من الأيام بأنني سأقبل بتغييرها ولا أعتقد أن هناك شخصا يستطيع أن لا يحبك. ثم همس في أذنها:

- أنت مليحة العرب.

وعلت وجه منال ابتسامة عريضة، وأحس بأنها في هذه المرة تبتسم من أعماقها وليست مجاملة. فهي لا يطربها سماع شيء أخر قدر ما يطربها سماع هذا اللقب الذي أطلقه عليها ممدوح شعراوي عندما رآها لأول مرة في "ديجون"، وبعد أن أحس أن الهدوء قد عاد إلى نفسها. تساءل بتردد:

ـ هل جمعت كل أشيائك في الحقائب؟.

قالت وهي تهز كتفيها:

ـ يعني الأشياء المهمة فقط.

فقال وقد علت وجهه ابتسامة ذات معني:

ـ إذن لم يتبق لك شيء مهم في "ديجون"

فاستدارت نحوه وقد أدركت ما يعنيه ثم قالت ببساطتها المحببة إليه:

ـ "أنا ما قلت ها الشيء هيدى زيادة من عندك".

وأردفت دون أن تفارق شفتيها ابتسامة عذبة:

ـ "حرام عليك" أنت تستغل جهلي ببعض التعابير العربية فتقولني أشياء لم اقلها.

وفاجأها متسائلا:

ـ متى تعودين إذا؟.

ووجمت منال وقد أحست بأن السؤال قفز فوق التسلسل المنطقي لحديثهما فجاء مبكرا قبل موعده، فوضع هو يده على كتفيها قائلا في هزل:

- أرأيت كيف استفدت من تحقيقات رجال المخابرات معي. فقد صرت أنا أيضا قادرا على مفاجأة محدثي في أحد منعطفات النقاش بسؤال لم يكن متوقع طرحه في اللحظة ذاتها، وبذلك أدفع بالاستجواب فجأة إلى قمته. وفضلت هي أيضا أن تدخل في قلب الموضوع مثلما أراد هو.

فقالت متسائلة:

- لأي سبب أعود إلى "ديجون"؟.

فقال:

- ألا تحسين بحاجتك إلى مثلما أحس بحاجتي إليك؟.

فأجابت على الفور و"بنرفزة" ظاهرة:

- مثل هذا الكلام الذي يحتمل مئة معني يصلح لقصائد شعرك. ولكن ليس له أي معني في الحياة العملية.

قال وهو يحافظ على لين لهجته:

- ليس في كلامي ما هو غامض. لقد قلت لك إنني أحبك. واعتقد أنك تبادليني العاطفة نفسها.

فردت عليه والغضب ما زال باديا على تقاطيع وجهها:

- إذن حقيقة مشاعري - رغم كل الذي بيننا - ما تزال موضوع شك لديك.

فقال ويده تعبث بشعرها الطويل المتكوم على حافة المقعد:

- لم يكن لدي شك في الماضي. ولكن فوجئت بسؤالك عن أهمية عودتك إلى "ديجون".

وصمتت منال قليلا وتتابعت أنفاسها سريعة مع علو صدرها وهبوطه، وتململ شفتيها قبل أن تنفجر قائلة:

- الحب ليس سببا كافيا في شريعة العرب لكي يعيش رجل وامرأة تحت سقف واحد.

ووجد نفسه أمام السؤال الذي حاول دائما تأجيل الإجابة عليه رغم أن منالا قد طرحته عليه مرارا ولكنه أحس بأنها تطرحه عليه للمرة الأخيرة. وتململ في جلسته لإحداث ثغرة في جدار الصمت الذي أحاط بهما في أعقاب هذا السؤال غير المباشر. وتشاغل بإخراج سيجارة وإشعالها محاولا إطالة مهلة الإجابة عن سؤال منال. ثم قال وهو يحاول أن يخفض من صوته الذي بدأ غليظا وجافا لكثرة التدخين وهدأة الليل وسكون الحجرة:

- هل تستطيعين إقناع والدتك بالموافقة على زواجنا؟.

وظل ينتظر سماع رد فعل منال على موافقته المفاجئة هذه التي ظلت تنتظرها منذ زمن.

قالت منال بلهجة تقريرية:

- لن توافق.

قال:

- وما الحل إذن؟.

وابتسمت منال بمرارة قائلة:

- " ما فيش حل" إلا إذا قررنا الزواج دون أخذ موافقتها في الاعتبار.

فقال:

- أرأيت أن العرب ليس لديهم شريعة واحدة يمكن إرضاؤها، ولكنها شرائع كثيرة، ومن الصعوبة أن لا نصطدم ببعض منها. ولهذا فقد وضعت كل شرائعهم جانبا واكتفيت منهم بالعروبة.

قالت محاولة الخروج من جو التشاؤم:

- سأفاتحها في الموضوع وأحاول إقناعها.

ثم التفتت إليه وهي تقول بصوت حالم:

- إذا استطعت إقناعها فلا بد أن تأتي أنت إلى هناك لتطلب يدي منها. أليس كذلك؟.

قال وهو يفتح ذراعه لكي تريح منال رأسها عليها:

- هذا أمر بسيط.

ورأى نفسه يسير مع منال وسط مزرعة صغيرة في سهل فسيح يمتد بين هضبتين مرتفعتين، صاعدين نحو منزل صغير يقود إليه طريق ضيق متعرج تحفه أشجار الصنوبر ويطل على بحيرة هادئة يقابلها في الجهة الأخرى شلال قوي ينحدر من الهضبة المقابلة، ثم أخذ ينظر مليا إلى الطفلين اللذين خرجا من المنزل وهرعا نحوهما. وفجأة رأي أصغرهما يتعثر ثم يسقط بين الأعشاب الخضراء التي تغطي حافتي الطريق، فأفلتت منال يدها من يده وأسرعت مهرولة نحو الطفل. وانحنت عليه وحملته بين يديها بينما طوق الطفل رقبتها بيديه الصغيرتين.

وما أن وصل هو إليهما حتى صاحت به منال وهي تشير نحو البحيرة. فالتفت ليرى طفلهما الأكبر يغوص بقدميه في ماء

البحيرة محاولا الإمساك بالبجعة التي تسبح بالقرب من ضفة البحيرة. واندفع هو لينتشل الطفل ويعود به بينما وقفت منال تنظر إليهما ضاحكة وهي ترى قدمي الطفل الموحلتين يلتفان حول عنق أبيه الذي يحمله على كتفيه. وسارا متشابكي الأيدي كلاهما يحمل طفلا على كتفيه موليين ظهريهما إلى شمس بدأت تميل نحو الغروب، مازجة إشعاعها البرتقالي بخضرة الحقل الفسيح الممتد خلفهما. وأحس أنيس برأس منال يزداد ثقلا على كتفه، فتأكد أنها استسلمت للنوم تماما. فقال بصوت يكاد يكون مسموعا:

- يا له من حلم لا يليق برجل محكوم عليه بالإعدام، ولا بلاجئة فلسطينية.

ثم نظر إلى الساعة المعلقة في الحجرة فوجدها قد جاوزت الرابعة ببضع دقائق. فأمال رأسه على حافة الكرسي تاركا ذراعه وسادة لرأس منال وحاول أن يغمض عينيه. ولكن ذاكرته حملته إلى ذلك اليوم الذي جمعته فيه المصادفة بمنال عندما فوجئ آنذاك بإحدى سكرتيرات معهد اللغة الفرنسية بجامعة ديجون وهي تقترب منه قائلة:

- أرجوك أن تأتي معي فهناك فتاة عربية لم تستطع استكمال إجراءات تسجيلها لأنها لا تتكلم الفرنسية.

وعندما صعد معها إلى إدارة التسجيل وجد منالا جالسة مولية ظهرها للباب وقد انسدلت خصلات شعرها الأسود حتى كادت أن تلامس البلاط. فلما اقترب منها محييا التفتت إليه باسمة وهي تقول بلهجة لم يمل سماعها بعد ذلك اليوم:

- "أهلين فيك. الأخ من أي بلد"؟

وتجاوز الإجابة عن سؤالها هذا الذي لم يسبق له أن أجاب عنه منذ أن صار مدركا.

وأحس أن كل ألوان الطيف تنبع من سواد عينيها الواسعتين. ووجد نفسه بعد مضي أسبوعين يجلس في قبالة منال ليقول لأول مرة شعرا في عيني امرأة، وهو الذي كان في السابق لا يتغنى في شعره إلا بثورة لم تولد بعد. وأكثر ما أدهشه آنذاك هو أن منالا كانت تستمع إلى كلمات التغزل بعينيها وتنظر إليه في آن واحد. ولم يجد تفسيرا آخر لهذه الظاهرة لدى منال سوى كونها ناتجة عن ثقتها بأن عينيها مهما قيل فيهما من شعر فإنهما تظلان أجمل من أي كلمة غزل يستطيع أن يقولها فيهما رجل؛ ومن ذلك الحين لم يفترقا قط.

وحينما يذهبان إلى إحدى حفلات الغناء النادرة في ديجون يجلسان متلاصقين ليترجم همسا في أذن منال مـــا لا تـــستطيع فهمه. وعندما يتباطأ في الترجمة تلتفت نحوه قائلة:

- " شو عم بيقول" ؟

فيقول لها:

- لقد تعمدت التباطؤ لكي تلتفتي إليَّ حتى أرى عينيك.

فترد منال بلهجة شاكية:

- إذا التفت نحوك " ماراح أسمع اللي عم بتقولو" .

وعندما أخذت منال تطرح عليه فكرة الزواج، كان صديقه ممدوح شعراوي يقول له:

- " ما فيش فايدة من العناد" ستجد نفسك مـــضطرا لاتخـــاذ قرار. فأنت رجل أصبح أسير خيارين. إما الزواج بامرأة رائعة كمنال والقبول بفكرة التدجين، أو البقاء في انتظـــار ثورة ربما لن تأتي أبدا.

واستيقظ على حركة منال داخل الحجرة وهي تلقي نظرة أخيرة على أمتعتها قبل إقفال حقائبها. كانت مـــصابيح شـــارع

"غابريال" ما تزال مضيئة، وخيوط الفجر الأولى تطل باهته من وراء مرتفعات "بورغونيا" عندما كانت سيارة الأجرة تنطلق بهما نحو محطة القطارات ليحلقا بقطار الساعة الخامسة المتجه إلى باريس.

كانت المحطة شبه خالية إلا من بضعة مسافرين يقفون في نواح متفرقة على جانب الخط الحديدي، ونظر إلى منال الواقفة بجانبه ثم ابتسم من سخرية ظروف هذا السفر المفاجئ الذي جعلها تغادر ديجون في هذه الساعة المبكرة دون أن يكون أحد غيره في وداعها، وكأنها ليست مليحة عرب " ديجون" وعندما شاهدا مصابيح القطار من بعيد وهو يقترب قادما إلى المحطة التفت كل منهما إلى الآخر.

كانت مقلتا منال مترعتين بالدموع عندما التصقت به لتعانقه. واكتشف أن هذه أول مرة تعانقه منال في مكان عام. وتذكر جملة منال التي طالما رددتها كلما كانا يسيران متلاصقين في الشارع فيظهر لها رغبته في تقبيلها فتقول له همسا: "ماتنساش أنو أحنا في الشارع. عيب أحنا عرب موش زيهم" !

قالت منال وهما يقفان أمام باب العربة وأيديهما متشابكة:

- سأخابرك كل يوم خميس ما بين الثامنة والتاسعة مساء. ولكن عدني ألا تعود إلى الشراب أثناء غيابي.

فقال:

- شريطة أن لا تطول غيبتك.

وعندما بدأ القطار يتحرك قالت له وهي تترك يدها مشدودة بين يديه:

- "ما بدك مني شي" ؟.

فقال بصوت مرتفع:

- أريد أن أقبلك حتى تنقطع أنفاسي !.

قالت وهي تغتصب ابتسامة سالت فوقها دمعتان وتحجرتا فوق أرنبة أنفها:

- " عيب يا أنيس أحنا عرب" .

وعندما أحس بأن عربة القطار أخذت تتحرك بسرعة أكثر ترك يد منال ووقف في مكانه بينما ظلت هي واقفة على الدرجة الأخيرة في مدخل العربة وهي تردد:

ـ "أشوفك بخير يا أنيس يا حبيبي.. أشوفك بخير يا أنيس يا .." ولكنه لم يستطيع سماع بقية الجملة فقد ضاع صوت منال وسط هدير محرك القطار الذي انطلق من عقاله.

(12)

لم يكن في الحفل ما يعني الكثيرين بالحضور. كذلك فإن منزل طلال سعيد الواقع في شارع صغير منعزل لا يتسع لعدد كبير من المدعوين. ومع ذلك فإن هذا لم يكن السبب وراء غياب وجوه كثيرة هذه الليلة، فمجموعة "قارو" لم يتبق منها سوى قارو نفسه بعد أن تركها نجمها عصمت شريف الذي هاجر مع زوجته الكندية إلى كندا. كذلك راغب مهداوي سافر واختفى نهائيا من ديجون. ولربما أحس الحاضرون بغياب مليحة العرب أكثر من إحساسهم بغياب أي وجه آخر. فقد كانت هي القادم الوحيد إلى ديجون الذي ظل طوال سنتين وسط هذا المجتمع الصغير الملئ بالخلافات دون أن تختلف مع أي منهم أو يختلف معها أي من هؤلاء. كان مجيئها إلى "ديجون" كظهور واحة وسط صحرائهم القاحلة المكتوية بنار صراعاتهم وخلافاتهم وسط مجتمع غريب عنهم لا يوليهم ثقة، ولا يكن لهم

مودة ولا كثير اعتبار. فلم يحصل بينهم في أي يوم من الأيام إجماع حول أي شئ كمثل إجماعهم على مودتها، وذلك لإحساسهم جميعا بأنها هي أكثر ظواهر مجتمعهم رقة وبراءة، وبعدا عن خلافاتهم المستعصية.

بدا الحفل مختلفا عن غيره من الحفلات السابقة، فغلب عليه طابع الشجن أكثر من الموسيقى والطرب. كما أن الوجوه التي كانت معروفة بقدرتها على خلق جو من المرح الملئ بالدعابة والنكتة اللاذعة والشتيمة المرة قد غابت هذه الليلة، ولم يستطع "قارو" بمفرده أن يشيع بين الحاضرين روح المرح فانكفأ على كأسه، واستسلم لهذا الجو الجدي مكتفيا بالاستماع إلى أغنية "ودارت الأيام" التي اختارها من بين أسطوانات كثيرة كانت مكدسة بجانب آلة التسجيل التي يجلس بالقرب منها.

ربما لم يكن قارو يدري أن جلوسه بتلك الطريقة قد أثار انتباه بعض الموجودين. فقد أخذ أنيس ينظر إليه وهو جالس مطرق رأسه إلى أسفل، فبدا له "قارو" صورة أخرى من صور هذا المجتمع الصغير الذي جمعت بين أفراده المصادفة في ديجون بالذات، ولكن بكل تأكيد لم تكن المصادفة أصلا وراء

تركهم أوطانهم!. وأحس أن "قارو" هذا ـ الذي يعد أكثر أفراد هذا المجتمع سدراً، والذي لا يقفل فمه المليء بالكلمات النابية والنكت اللاذعة إلا لكي يحتسي جرعة من كأس الجعة أو يسحب "نفسا" من سيجارته ـ هو أيضا كالآخرين، وراء مجيئه إلى ديجون قصة ليست سارة، ونفسه مترعة ككأسه بأحزان وشجون لو أراد أن يسردها لما وجد فسحة يوم واحد للهو والتهريج في حانات "ديجون".

كان تيسير سمعان يروي لمن كانو بالقرب منه آخر أخبار هذا المساء عن الحصار الذي تم حول مخيم تل الزعتر. وكان البعض يسمع باسم هذا المخيم لأول مرة، فأخذ يستمع ويستفسر عن هذا المخيم ، بينما جلس بالقرب من تيسير خالد أنور آخر من تبقى من أصدقاء هشام خلف، والوحيد في هذه المجموعة الذي لم يؤد دخول الجيش السوري إلى لبنان خلاف بينه وبين تيسير سمعان.

قال خالد أنور:

ـ لا أظن أن المخيم سيترك لمصيره.

فرد عليه تيسير سمعان:

- أؤكد لك بأنه إذا لم تستطيع المقاومة والقوى التقدمية فك الحصار فإن المخيم لا ينتظره إلا الإبادة.

ثم أردف متسائلا بلهجة لا تخلو من تحد:

- من غير هؤلاء تعتقد سيهب لفك الحصار؟.

وهنا تدخل طلال سعيد - الذي كان جالسا بجانب عروسه "أيفلين" في وسط المجموعة - ليضع حدا لنقاش يعرف أنه سيتطور إلى خصام:

- " ما فيكم توقفو لنا هيدا النقاش" ألا ترون أنني الليلة عريس وأريد أن أسمع وأرى أشياء أخرى. وانتهز ممدوح شعراوي هذه الفرصة لكي يخرج الحاضرين من هذا الجو الذي سيطر عليهم.

فنهض قائلا:

- " أنتو ما لكم مقفلينها اوى كده ملعون أبو السياسة. يا خونا قولو كلمتين حلوين للعريس والعروسة. بلاش نكد".

رغم حجم خطورة الحدث الذي كان موضوع النقاش بين تيسير سمعان وخالد أنور إلا أن الجميع بدا عزوفا عن الحديث في السياسة هذه الليلة، وقد يكون هذا ناتجا عن إحساس الكثير

بأنهم حتى لو قضوا كل هذه الليلة يتناقشون داخل منزل طلال سعيد بديجون لما أدى هذا إلى فتح ثغرة ولو بقدر ثقب إبرة في حصار مخيم تل الزعتر.

قال ممدوح شعراوي وهو يلتفت نحو أنيس كامل:

- " غلب أيه ده" حتى الجنود أثناء الحرب يحصلون من وقت لآخر على بعض الفترات الترفيهية.

فرد أنيس ضاحكا:

- ولكن المشكلة هو أننا في حالة اللا سلم واللا حرب.

قال ممدوح:

- لا تنس أننا جزء من الحالة العامة.

فقال أنيس:

- هذا مؤسف.

فسحب ممدوح آخر نفس من سيجارته قبل أن يلقي بها تحت رجله ويهرسها، ثم قال:

- يا سيدي. نحن متفقون حول مسألة الأسف هذه. ولكن هذا لا يعني تحويل حفل العرس إلى مأتم.

فرد أنيس:

- بالطبع فهذا لن يغير من الأمر شيئا هذه الليلة على الأقل.

كان أنيس يعلم أن موقف ممدوح شعراوي هذا ليس متأتيا من عدم المبالاة بما يجري هناك. فهو الرجل نفسه الذي عبر بدبابته وسط وابل من صواريخ "سمارت" ليشارك في صنع يوم لم ير العرب قبله يوما مجيدا منذ ربع قرن ملئ بالهزائم.

قال ممدوح وهو يترك رأسه يتدلى إلى أسفل:

- أحس بأن الحصار سينتهي بإبادة المخيم.

فقال أنيس:

- هذا أقرب الظن.

وهنا رفع ممدوح رأسه إلى أعلى وقال دون أن يتوجه بالحديث مباشرة إلى أنيس وقد عادت إليه لهجة نقيب الدروع الجافة: الأدهى هو أن إبادته لن تغير أيا من معطيات الواقع، ولن تدفع بهذه المنطقة النائمة إلى أية صحوة كانت.

قال أنيس:

- على أية حال، حتى لو تمت إبادته فلن يبلغ حد المأساة

التي بلغتها مذابح سابقة، ومع هذا فلم يتحرك ساكن ولم تتغير المعطيات آنذاك.

فعلق ممدوح وهو يهز رأسه:

ـ غريب وضع هذه المنطقة وكأنها تحمل حرزا ضد اليقظة.

قال أنيس:

ـ إنك توجه لها التهمة مستخدما ضمير الغائب وكأننا لسنا مشمولين بالتهمة نفسها.

فقال ممدوح ضاحكا:

ـ ألا ترى أننا قد حرضنا الجماعة على الطرب والغناء ثم بقينا نحن الاثنين نتجادل.

فرد أنيس:

ـ ربما لإحساسنا بأننا لا نجيد أي نوع من أنواع الطرب.

وهنا قال ممدوح:

ـ أبدا "احنا أدها وقدود" .

ثم أخذ يدندن بصوت لا يخلو من دلالة:

- " ليلتنا نجف والفرح صدف"

وأخذ طلال سعيد يصيح مشجعا:

- " الله . الله . شو ها الصوت الحلو اللي عم نسمع".

بينما نهض قارو الذي عادت إليه روح المرح واقترب من ممدوح متعثرا في مشيته ويده ترتعش ممسكا بكأس تتلاطم على حافته جعته المفضلة، ثم أخذ يقول بلهجة مصرية هذه المرة:

- " نورتنا يا شيخ الله إنورك" أنت فنان أخطأ الاختيار فألقت به الصدفة في "ديجون"، ثم أخذ يردد بمفرده مقطع الأغنية ذاتها.

ربما كانت تلك أول مرة يتوجه فيها قارو بحديث خال من التكلف إلى ممدوح شعراوي، رغم أنه قد مضى على وجودهما معا في "ديجون" أكثر من ثلاث سنوات. وعندما هدأت زوبعة الإعجاب والتهليل التي شارك فيها الجميع ما عدا تيسير سمعان، التفت ممدوح نحو أنيس قائلا:

- " شايف يا سيدي" العرب كلهم متفقون على موهبتي.

فرد أنيس:

ـ هذا أمر نادر الوقوع.

ثم نظر إلى ساعته وهو يتململ في جلسته فبادره ممدوح قائلا:

ـ يبدو أنك تفكر في العودة إلى البيت.

فقال أنيس:

ـ لقد تقدم الليل وكنت متعبا طوال اليوم.

وما أن نهض كل من أنيس وممدوح حتى صاح قارو:

ـ "والنبي وصلة ثانية قبل ما تروح".

ونهض طلال سعيد متجها نحوهما وهو يقول مازحا:

ـ "شو يا زلمي" أنت صرت مطرب الحفل "كيف تتركنا بكير" .

فرد ممدوح:

ـ البقية في العدد القادم.

وشبك طلال إحدى يديه بيد ممدوح والأخرى بيد أنيس ثم قال وهو يتمشى بينهما نحو الباب:

- " ما راح يكون فيه عدد قادم" غدا سنرحل.

قال أنيس:

- أمللت ديجون إلى هذا الحد ؟.

فرد طلال وهم يتمشون في الشارع:

- أما أني مللت ديجون فهذا صحيح. ولا أظن أحدا لم يملها ولكن على أية حال هذا ليس السبب وراء رحيلي المبكر. وإنما قررنا السفر والاستقرار في القرية قبل بداية العام الدراسي حتى نتعرف على السكان ونستأنس بهم قبل بداية العمل.

فتساءل ممدوح:

- هل أنت الذي اختار هذه القرية أم إدارة التعليم.

فرد طلال:

- من دون شك هم الذين اختاروها، ولكن أنا ايضا وجدت فيها كل الشروط المطلوب؛ قرية صغيرة، هادئة، منعزلة وسكانها بسطاء.

فعلق أنيس:

- يا لها من قرية خيالية.

بينما أضاف ممدوح:

- إنها حلم المتقاعدين.

قال طلال سعيد بنبرة فيها انكسار:

- يبدو أن اختياري لها يحمل في طياته بعضا من هذه الأسباب والمعاني.

وأحس أنيس بأن طلال سعيد أراد أن يتقاعد مؤقتا، فبعد مسيرة ربع قرن من النضال والسجن والتناقض الحاد بين أحلامه وواقع الأرض العربية.. وجد نفسه منهكا أمام خيارين لا يريد أيا منهما: السقوط أو اليأس. والسقوط يعني لديه التخلي عن الماضي كله وحرقه. وتأييد كل ما جرى، والمشاركة في كل ما يجري. أما اليأس فهو القبول بالهزيمة، وهذا أمر لا يملك في الواقع هو وحده الإقرار به، ولهذا فقد صاغ خيارا ثالثا لا يقع في منتصف الطريق بين الخيارين السابقين ولكنه قد يتماس معه في نقطة ما. فأسماه التقاعد المؤقت !.

قال ممدوح وهم يتوقفون عن السير:

- سيترك رحيلك فراغا كبيرا بيننا.

فرد طلال:

- وأنا أيضا سأفتقد كما هناك. ولكن من يدري، فقد جمعتنا في ديجون مصادفة، والحياة تعج بالمصادفات.

قال أنيس وهو يضع يده على كتف طلال:

- أراك هذه الليلة معولا على المصادفات اكثر من الحتميات.

وضحك طلال سعيد دون أن يعلق، بينما تدخل ممدوح قائلا:

- ربما عيب المصادفة أنها قد تأتي في لحظة لا نكون فيها قادرين على الاستفادة من حدوثها وإدخالها في مجرى التطور.

فعلق طلال كعادته بلازمته الفرنسية:

- "Exactement" تماما.

قال أنيس قاطعا عليهما الحديث:

- أرى أننا قد أطلنا الوقوف هنا ولا يزال لديك ضيوف ينتظرون في البيت.

ثم عانق طلالا وهو يقول:

ـ لقد كان التقائي بك في ديجون من بين المصادفات التي لا أندم عليها في حياتي.

بينما غمغم طلال بصوت مبحوح:

ـ أنت لا تعرف "شو معزتك عندي" يا رجل .

واستدار أنيس مواصلا سيره دون أن يلتفت إلى الخلف كعادته دائماً عندما يودع إنسانا يعز عليه كثيرا.

قال طلال وهو يعانق ممدوح:

ـ وأنت أيها المصري تعال هنا.

ثم أردف ويداه ما زالتا على كتفي ممدوح:

ـ لقد التقيت بنقيب مصري منذ خمسة عشر عاما في ثكنة حمص. ولكنه لم يكن مثلك!.

فقال ممدوح:

ـ هذا أيضا من عيوب المصادفات.

فرد طلال وهو يستدير عائدا:

ـ ولكن تلك لم تكن مصادفة.

وظل ممدوح واقفا في مكانه ينظر إلى طلال الذي قفل راجعا. بينما ظل أنيس مواصلا سيره لا يلتفت إلى الوراء وكأنه لا يريد أن يرى خيبة الامل على ملامح هذا الرجل الذي خرج منذ خمسة عشر عاما متخفيا تحت جنح ظلام ليل حمص، رافضا الإقليمية السورية، باحثا عن هوية عربية، لينتهي به المطاف في قرية نائية مجهولة في الريف الفرنسي !.

ولحق ممدوح شعراوي بأنيس وسارا كلاهما جنبا إلى جنب في صمت تام مثقل بالمعاني.

(13)

لم يسبق أن مرت أيام رتيبة ومشحونة كمثل هذه الأيام. فالجميع يتابع أخبار حصار تل الزعتر، وحرب لبنان تركزت كلها في هذا الحدث بالنسبة للكثيرين في ديجون. قال ممدوح موجها حديثه إلى أنيس وهما يجلسان في شرفة شقة أنيس الصغيرة المطلة على السهل الأخضر:

- على كل حال. لا ينبغي أن تيأس هكذا. فقطعا سيبقى بعض الأحياء وقد تكون هي من بينهم.

فقال أنيس وهو يستند على حافة الشرفة ونظراته شاردة عبر السهل الأخضر:

- إنني لا أستطيع أن أتصور إمكانية وجود أحياء بعد أسبوع من القصف المتواصل وانقطاع الماء والغذاء.

قال ممدوح محاولا زرع الشك حول ما قالته هدى نصراوي لأنيس صباح أمس في مكالمتها الهاتفية من لبنان:

- قد تكون منال خرجت من المخيم قبل الحصار ولكنها لن تتصل بهدى نصراوي، فظنت هذه أن منالا ظلت داخل المخيم.

فقال أنيس محاولا إعادة ما روته له هدى نصراوي:

- لا أعتقد أن هناك مجالا للشك فيما روته لي. فقد قالت إن منالا ذهبت لرؤية والدتها في المخيم وكنت على موعد معها في عشية اليوم الثاني. ولكنه في صبيحة اليوم نفسه حوصر المخيم الذي يدخل حصاره الآن يومه الخامس. ثم أردف أنيس قائلا:

- لقد ألححت على هدى أن تعاود الاتصال بي بمجرد حصولها على أخبار منال حسنة أو سيئة كانت.

قال ممدوح لائما أنيسا:

- لقد تركتها تذهب إلى المجهول وتحاول الآن أن تتقصى أخبارها.

اكتفى أنيس بالنظر إلى عمود الدخان المتصاعد من سيجارته. بينما أضاف ممدوح قائلا:

- أنت لا تخلو من مسؤولية عما جرى.

ولم يسمع ممدوح أي رد من جانب أنيس الذي ظل يراقب سيجارته وهي تحترق بين أصابعه فأردف قائلا:

- لو كنت قد تزوجتها لما حصل كل هذا. ولكنك...

ثم توقف ممدوح قبل أن يضيف:

- اسمح لي أنا أقولها لك. ولكنك لا تخلو من أنانية .

وهنا تساءل أنيس دون أن يفقد هدوءه:

- في أي شئ تمثلت لك هذه الأنانية ؟.

فأجاب ممدوح شعراوي:

- أنت تحب منالا وهي تحبك، ومع ذلك فإنك لم تقدم على الزواج منها رغم أنها أظهرت لك هذه الرغبة مرات

عديدة. ولكنك تجاهلت هذه الرغبة ـ لأنك حسب اعتقادك ـ تريد أن تعيش دائما وسط أحلام وهـواجس الثـورة، وتحتفظ في الوقت نفسه بامرأة تحبهـا دون أن تتزوجهـا حتى لا تصبح أبا لعائلة مدجنة.

فقال أنيس دون أن يرد مباشرة على اتهام ممدوح:

ـ هل تعتقد أنني لو كنت قد تزوجتها لما أصيبت والدتها في حرب لبنان. ولما كانت منال تذهب لزيارتها هناك ؟.

قال ممدوح:

ـ إنني لم أقل إن أمثال هذه المصادفات ما كانت لتقع. ولكن لو كنتما متزوجين لكان من الممكن مجئ والدتها إلى هنا لتبتعد قليلا عن ذلك الجحيم. ألا ترى معي أن مثـل هـذا كان ممكنا.

فقال أنيس:

ـ إن قبول والدتها بزواجنا ثم مجيئها إلى هنا لم يكن ممكنا، وأنت تعرف هذا جيدا.

ثم أردف:

- كان من الممكن بالطبع أن نتزوج ولكن هذا سيكون ضد رغبة والدتها.

فقال ممدوح:

- أحيانا تجنح نحو رومانسية لا علاقة لها بالفكر الثوري.

فقال أنيس على الفور:

- الثورة خليط من الرومانسية والواقع.

قال ممدوح:

- ليس إلى هذا الحد.

قال أنيس:

- لم يكن لترددي أمام رفض والدتها سبب رومانسي، فلو كانت والدتها امرأة أخرى غير تلك العجوز - التي فقدت زوجها في فلسطين، ثم فقدت في شيخوختها كل أبنائها الذين قتل نصفهم الاسرائيليون ونصفهم سحلته دبابات ملوك العرب - لما كنت أتردد أمام عدم رضاها.

وظل ممدوح صامتا يتشاغل بلف سيجارته. ولم يعجب أنيسا هذا الصمت من جانب جليسه، فاستحثه متسائلا:

- ماذا ترى في موقفي الآن. أليس صعبا ؟.

فهزّ ممدوح رأسه بطريقة تنم عن حيرة في الجواب.

وأردف أنيس قائلا:

- يجب أن تعلم أيضا أننا قد اتفقنا على الزواج قبل أن تسافر إلى لبنان. ووعدتني بأنها ستحاول إقناع والدتها.

واستدار أنيس نحو ممدوحا مضيفا:

- إنني أقول لك هذا الآن لكي تعلم أنني لم أكن أنانيا كما اعتقدتني. ولكنني وجدت نفسي في موقف معقد. لأن التقاليد والأديان أمور لا يجب الصدام معها مواجهة.

أما قولك إنني أرفض أن أكون مدجنا فهذا صحيح. ولم يسبق لي أن فكرت في أي يوم من الأيام في زوجة وبيت وأطفال.

واسترسل أنيس في حديثه بينما ظل ممدوح منصتا لكلمات صديقه متدفقة بحرارة، وهو يتحدث لأول مرة عن همومه الشخصية، وليس عن دواعي الثورة في بلاد العرب: ولكنني بعد لقائي بمنال بدأت أفكر في الزواج، ثم قبلت به لأنه لم يكن يحمل معنى التدجين، بل بالعكس فزواج رجل مثلي من

فتاة مثل منال لا يعني سوى أنهما يحلمان ببيت سعيد وحياة مستقرة، رغم صنوف التنكيل والتشريد، ورغم أنف هذا الزمن اللعين. وتوقف أنيس وهو يبتلع ريقه بشئ من الصعوبة. بينما أخذ ممدوح شعراوي ينظر إليه من خلال نظارته وقد أحس بأن هذا الرجل الذي حمل السلاح ذات يوم في جبال ردفان ولم يكن يحلم وقتها بشئ آخر سوى أن تصل أمواج تلك الثورة إلى شواطئ البحر الأحمر عبر جزيرة العرب. لم يعد له من حلم آخر في أصيل هذا اليوم الصيفي في "ديجون" سوى رؤية منال وهي تخرج حية من تل الزعتر حتى ولو كانت الناجية الوحيدة.

ولما شعر ممدوح أن الصمت الذي خيم عليهما لم يعد يطاق، تململ في مقعده وهو يقول:

- دعنا نخرج لنتمشى قليلا.

ثم نظر إلى جهاز الهاتف الموضوع على الطاولة الصغيرة في زاوية الحجرة، وأضاف قائلا:

- لو كان لدى هدى نصراوي أية أخبار جديدة لاتصلت بك قبل الوقت كما جرت العادة.

فقال أنيس:

- إن الأمر ليس بهذه البساطة، فمعظم خطـوط الاتـصال مشلولة. ولهذا، حتى وإن كان لديها أخبار فإنه يلزمها أن تحاول وتنتظر حتى تجد فرصة الاتصال.

وفهم ممدوح أن أنيسا ليس لديه النية في الخروج، وأنـه يفضل البقاء محبوسا في منزله بجانب جهاز الهاتف لعله يأتيـه بأخبار منال.

وأراد ممدوح أن يخفف عنه قليلا، فقال وهو يعدل نظارته ويلتفت نحو أنيس:

- رغم كل الذي قلته فإنني اقتنعت بأن موقفك كان سليما إلى حد بعيد.

فقال أنيس وهو يبتسم دون أن تنفرج شفتاه:

- ولكن ليس إلى أقصى حد.

فقال ممدوح:

- لم يكن بإمكانك أن تفعل شيئا. ولكن الظروف لعبت دورها بشكل يجعلك تبدو وكأنك مقصر بعض الشيء.

قال أنيس وقد بدت لهجته غير طبيعية:

- لقد ساورني الإحساس بأن منالا هذه الإنسانة الوديعة التي تحلم بحياة هادئة قد ذهبت ضحية أنانيتي وأنانية والدتها وأنانية اليمين واليسار وأنانية الثورة وأنانية ...

وهنا قاطعه ممدوح وهو يربت على كتفه:

- لقد بدأت تهذي.

فقال أنيس:

- لا أظن ذلك.

فرد عليه ممدوح:

- بل مؤكد. وإلا كنت لتقرن الثورة بالأنانية.

قال أنيس وهو يسترجع أنفاسه بصعوبة وكأنه كان يعدو:

- أعرف ذلك. ولكن الثورة قد تبدو أنانية للبعض، من حيث إنها غيورة على مبادئها وحريصة على نفي ما يتناقض معها.

وهنا ضحك ممدوح ضحكة نصفها تلقائي ونصفها الآخر مصطنع لكي تطغى على هذا الجو، ثم قال بلهجة مصرية مرحة:

- " بس وقف عندك. بلاش ندخل في قوانين نفي النفي وخلافه. خلينا في الإيجابيات والأمل والحب والحاجات الحلوة!"

قال أنيس:

- إنني أحس بنوع من الارتياح لأنك لمتني بقسوة ودافعت عنها.

ونهض ممدوح في هذه اللحظة ليضغط على زر الكهرباء القريب منه ليضئ الشرفة فقد خيم الظلام على كل ما حولهما.

وعاد ممدوح إلى مكانه وهو يقول بلهجة لا تخلو من تفاؤل:

- عندما تعود مليحة العرب سأروي لها كل هذا. وسيسرها كثيرا أن تعلم أنك قد وصلت إلى حد الهذيان من جراء مخاوفك على حياتها.

قال أنيس وهو يسترجع ذاكرته:

- لقد قالت لي في أحد الأيام وهي تمزح معي:

- أريد أن أراك يوما وأنت تبكي. فقلت لها رغم أنه لم يسبق

لي أن بكيت إلا أنه ليس مستحيلا. ولكن على أيـــة حـــال فإنني متأكد بأنه ليس من المحتمل أن تكوني شاهدة علـــى هذا في حال وقوعه، لأنه ليس لدي شئ يستحق أن أبكـــي من أجله إذا افتقدته سواك أنت .

وظل ممدوح يدخن بشراهة وهو ينظر إلـــى المـــصابيح المتلألئة عبر شارع "غابريال" الذي يبدو ممتدا بعيدا عنهما في نهاية السهل الأخضر. ثم قال فجأة: لقد مللت هذه المدينة.

فقال أنيس:

- لقد قررت أن أتركها على أية حال.

قال ممدوح:

- ولكن ليس قبل أن تعود منال.

فقال أنيس:

- طبعا. طبعا. ســـأنتظرها. وبمجـــرد وصـــولها ســـنترك "ديجون".

قال ممدوح وقد وجد في الاتجاه الذي أخذه حديثهما نوعا من السلوى:

- ولكن ليس قبل أن تقيما حفلة زواج حتـــى أتمكـــن مـــن حضورها.

قال أنيس:

- اطمئن. إنني ملتزم بتوجيه الدعوة لك أينما كنت.

فتساءل ممدوح:

- حتى لو كنت في القاهرة ؟.

فهز أنيس رأسه بالإيجاب:

- حتى لو كنت في القاهرة.

قال ممدوح:

- سأدعوكما لزيارتي هناك لأن مليحة العرب تتمنى دائمـــا زيارة القاهرة.

قال أنيس مازحا:

- عليك أن تؤمن عودتك إليها أولا قبل أن توجه الدعوة إلى الآخرين لزيارتها.

قال ممدوح:

ـ حتما سأعود إليها يوما.

فقال أنيس:

ـ سنذهب لزيارتك هناك عندما تكون الظروف ملائمة.

فألقى ممدوح بعقب سيجارته وهو يقول:

ـ في هذه الحالة لن تكون الزيارة في المستقبل القريب !.

فقال أنيس:

ـ وهذا ما يبدو لي أيضا.

وعاود ممدوح الحنين فقال:

ـ إنني لا أمل القاهرة أبدا.

قال أنيس:

ـ لقد زرتها كثيرا وكنت دائما أغادرها مغالبا نية البقاء فيها.

فتساءل ممدوح:

ـ في أي المناطق أقمت أطول وقت ؟.

فضحك أنيس قائلا:

ـ منطقة دهشور.

فهزّ ممدوح رأسه مبتسما وقد تذكر ما كانت تعنيه هـذه المنطقة في الماضي. ثم قال مغيرا مجرى الحديث:

ـ "نفسي أشوفك ونت عجوز مكحكح" تدب بعكازك باحثـا عن الأماكن المشمسة، متلهيا بحل الكلمات المتقاطعة وقد رحلت عن نفسك شجون الثورة.

فقال أنيس:

ـ لا أريد أن أصل إلى تلك المرحلة المتأخرة من العمر.

فتساءل ممدوح:

ـ لماذا ؟ ألا ترى أنه حلم يستحق أن يعاش. عندما يجلـس المرء في ركن منزو بعد أن تقدم به العمر ليشاهد أمـواج الثورة وقد تلاطمت فوق أرض العرب فـاختلط المحـيط بالخليج.

فقال أنيس بعفوية:

ـ يا له من مشهد !.

قال ممدوح:

- إذن لماذا لا تريد أن يطول بك العمر لتراه؟.

فأجاب أنيس:

- أخشى أن يطول بي العمر ولا أرى ذلك اليوم. وعندئذ فلن يكون طول العمر سوى عذاب أطول.

فقال ممدوح:

- لم أرك في أي وقت مضى أكثر شكا في إمكانية حدوث هذا اليوم مثلما أراك هذه الليلة.

قال أنيس وهو يمد بصره جهة اليمين وقد تراءت له أضواء بعيدة لمجموعة من القرى الصغيرة المتناثرة فوق رؤوس مرتفعات "ديجون":

- أبداً. إنه قادم لا محالة، وهو بالفعل سيكون اليوم الذي تظل شمسه معلقة في السماء أطول مدة من أي يوم آخر في التاريخ. ولكن ... ولم يضف أنيس شيئا. وفضل ممدوح عدم استيضاح صديقه عن هذا الاستدراك الناقص.

بعد لحظة صمت قال ممدوح:

- عندما أحاول تذكر كل الوجوه والنماذج التي التقت في

"ديجون" فإنني لا أستطيع تصور إمكانية التقائها جميعا في أي بلد عربي.

فعلق أنيس قائلا:

- ولكي لا نبالغ، فإن التقاء بعضهم ممكن في سجن عربي.

قال ممدوح:

- حينما أتذكر الوجوه التي التقيتها في "ديجون" وأني لن ألتقي بها مرة أخرى. فإنني أصاب بشئ يشبه الغثيان.

ثم أخذ ممدوح يعد بعض الأسماء التي اختفت:

- طلال سعيد، هشام خلف، تيسير سمعان، راغب مهداوي، عصمت شريف، هدى نصراوي. ولم يتعرض ممدوح لذكر منال لأنه لا يريد أن يعتبرها -على الأقل حتى تلك اللحظة - من جملة المختفين. ولم يكن صديقه أيضا يفضل سماع ذلك.

وأردف ممدوح قائلا:

- رغم أنه لم يكن بين معظمهم أي قاسم مشترك من حيث التفكير ولا من حيث الاهتمامات، فإن اختفاء أي منهم كان

كافيا لإحداث شرخ في نسيج هـذا المجتمـع الـصغير. وأضاف ممدوح وكأنه يحدث نفسه هذه المرة: حتى أولئك الذين لم أكن أستسيغ مجالستهم، عندما اختفوا شعرت بأنهم تركوا فراغا كبيرا.

فقال أنيس:

- أرأيت أن اختلاف الآراء والاهتمامات في ظل جو خـال من الخوف يصبح أمرا يصعب التعود على غيره.

فزفر ممدوح قائلا:

- ومع هذا، فقد عودنا على غيره هناك!.

وتساءل أنيس:

- هل تنوي البقاء في "ديجون" ؟.

فرد ممدوح:

- ليس بإمكاني هذا. إذا بقيت هنا وحدي ومـع كـل هـذه الذكريات فإنني سأصاب بالجنون. لقد تم قبـولي مـساعد محاضر في كلية الاقتصاد بجامعة وهران. كنت متـرددا في السابق ولكنني الآن لم يعد لدي ما يشدني هنا.

فقال أنيس متسائلا:

- هل وصلتك أخبار جديدة من زوجتك؟

فأجاب ممدوح:

- لا جديد في الأمر. لا زالت ممنوعة من الخروج.

وخيم الصمت على الاثنين فأخذ كل منهما يجيل نظراته فيما حوله واشتدت وطأة السأم على الاثنين فنهض أنيس قائلا:

- لا أظن أن هناك من يمنعنا من الخروج من هذه الحجرة.

فوقف ممدوح وهو يلملم عدة لف السجائر ويضعها في جيبه قائلا:

- هذا ما كنت سأقوله.

وعندما وصلا إلى باب الشقة خارجين التفت أنيس نحو ممدوح قائلا:

- ولكن إلى أين نحن ذاهبان ؟ !.

فدفعه ممدوح ببطء وهو يقول:

- إلى أي مكان ؟

وأعقب صوت انغلاق الباب حركة وقوع أقدامهما فوق درجات السلم متجهين إلى حيث لا يدريان.

(14)

عادت رياح الخريف تعصف مرة أخرى بأشجار ممرات المدينة الجامعية وبدأت الحركة تدب في الحي الجامعي، فأخذ يعج بمئات الوجوه الجديدة.

ومع مرور الأيام أصبح موضوع معسكر تل الزعتر حادثة صغيرة في حرب مستمرة مل الجميع سماع أخبارها، ولم يعد يتحدث عنها أحد في مقهى "لاكروبول". بينما ظل هناك شخص واحد لا يريد أن ينسى هذه الحادثة، ويحاول كل يوم البحث عن اسم بين ضحاياها الكثيرين. ورغم مرور شهرين على نهاية حصار تل الزعتر فإن أنيس لم يستطع معرفة مصير منال. ولكنه لم ييأس ولم يغير عادته في التردد على مقهى "لاكروبول" حيث يجلس مع صديقه ممدوح شعراوي حتى ساعة متأخرة من الليل، ولا يبدو أنيس لغير ممدوح - الذي يعرفه جيدا - أنه إنسان قلق ينتظر بتحرق شيئا تجاوزت حدود انتظاره مشارف اليأس، غير أنه لا تمر ليلة دون أن يطرق

الموضوع بسؤال لا تتغير مفرداته، ينصت إليه ممدوح باهتمام وكأنه يسمعه لأول مرة، ولكنه لا يجيب عليه أبدا: إن الذي يحيرني أكثر هو صمت هدى نصراوي.

ويحاول ممدوح أحيانا أن يتشاغل بلف سيجارته أو مداعبة ولاعته فيتركها تسقط حيث يجد فرصة للهروب بالبحث عنها تحت أرجل الطاولة. وعندما يمل ممدوح من تكرار وسيلة الهروب هذه بينما لا يمل أنيس من تكرار سؤاله كل ليلة، يبحث ممدوح عن مهرب آخر فيقول له وهو يشير إلى إحدى الفتيات الجالسات قبالتهما:

- " شايف الجو اللي قاعدة قصادنا" .

فينظر أنيس أحيانا للفتاة باهتمام، وأحيانا لمجرد مجاراة صديقه في لعبته. وعندما يسأمان الحديث يظل أنيس يجيل نظراته في الجالسين حوله، وكأنه يحصي الوجوه العربية الجديدة التي وصلت هذا العام وعرفت طريقها كسابقيها إلى مقهى "لاكروبول" ثم يقول:

- إن ما يصل إلى "ديجون" كل عام من المهاجرين العرب وأشباه المهاجرين من الطلبة يفوق عشرات المرات عدد الذين يختفون منها.

فيرد عليه ممدوح وقد انعقد حاجباه إلى أعلى بلهجة مليئة باليأس:

- " ما فيش فايده".

فيزفر أنيس قائلا بلهجة لا تحمل رغبة في مزيد من النقاش حول هذا الموضوع:

- يهربون من قسوة الواقع هناك ويعاملون هنا مثل غرائب الإبل.

وبدأ أنيس منشرحا هذه الليلة وهو يجلس بين ممدوح شعراوي وخالد أنور حيث أخذ هذا الأخير يروي بلهجة بادية الشام المراحل التي قطعها حتى وصل إلى "ديجون" فقال :

- حينما بلغت السادسة كنت قد أصبحت راعيا لا يستهان بخبرته، حيث أخرج كل يوم مع قطعان أبي في بادية الشام، وذات يوم صادف أن زارنا أحد أصدقاء أبي وكان أحد تجار القرية فلما شاهدني قال لأبي:

- لماذا لا تبعث به إلى مدرسة القرية ؟

فرد عليه أبي قائلاً :

- ولكن في مدرسة الحكومة لا يعلمونهم القرآن، وإنما علم الشيطان !.

فاعترض الرجل قائلا:

- " لا يابو خالد يعلمونهم القرآن، وكيفية الوضوء، وفريضة الصلاة.

وأضاف خالد أنور ضاحكا ضحكة تبدو دائما وكأنها خارجة من منخريه:

- ولربما لهذا السبب فقط قرر أبي أن يبعث بي إلى مدرسة القرية. ولم يكن محتملا أن أواصل دراستي بعد انتهاء الصف الثاني في القرية. ولكن شاءت الصدفة مرة أخرى " ياطويل العمر" أن يصاب خالي بمرض أقعده جزئيا عن إدارة متجره في دمشق فسمح لي والدي - بضغط من والدتي - بالانتقال والإقامة مع خالي في دمشق لمساعدته في عمله. وكانت تلك الصدفة الحاسمة التي سمحت لي بمواصلة دراستي حتى نهاية المرحلة الجامعية.

ثم أضاف خالد أنور ضاحكا:

- " شايف يا زلمي" كل منعطفات حياتي صنعتها الصدف.

فقال ممدوح:

- لست وحدك !.

بينما علق أنيس كامل قائلا:

- على أية حال في بلادنا حتى مصائر الشعوب تتحكم فيها الصدفة. فالحرب والسلام وكل خيار سياسي يتم تبنيه صدفة ويسقط بمحض الصدفة .

وأخذ ممدوح شعراوي ينقر على حافة الطاولة بولاعته في حركة عفوية متواصلة بينما أطرق الاثنان الآخران في صمت تام.

وتواصلت طرقات ولاعة ممدوح حتى غدت هي الصوت الوحيد الصادر على الثلاثة، ولم يحاول أي منهم أن يقطع هذا التواصل، وكأنهم قد تآمروا فجأة ضد لغة الكلام أو أنهم فضلوا ثلاثتهم الاستماع إلى صوت رابع حتى وإن كان مجرد طرقات تتردد في الفراغ !.

ورفع خالد أنور رأسه بعد مرور لحظة ليست بالقصيرة، وقال متوجها بالحديث إلى كل من ممدوح وأنيس:

- " لسه قاعدين يا شباب " ؟.

فنظر ممدوح إلى ساعته وهز رأسه قائلا:

- لم يعد في المكان ما يدعو للبقاء.

قال أنيس وهو ينهض:

- ربما كان الداعي إلى البقاء منعدما منذ البداية.

ونهض خالد أنور وهو يودعهما كعادته بحركة من يده اليسرى ويده الأخرى في جيب بنطلونه.

قال أنيس لممدوح وهما يسيران ببطء عبر الممر الترابي الضيق الذي يمتد كبطن ثعبان خلال أعشاب السهل الأخضر، صاعدا نحو الربوة المقام عليها معظم مباني المدينة الجامعية:

- مازال أمامنا أسبوع قبل سفرك إلى الجزائر. فمن يدري قد تأتي منال غدا أو بعد غد ونقيم حفلة كتلك التي أقمناها لطلال.

وفوجئ ممدوح شعراوي بهذا التفاؤل المتطرف في كلمات أنيس حول قرب عودة منال، وكأن عودتها لم تعد موضع شك. ولكنه فضل أن لا يشعر صديقه بأنه لا يشاركه هذا التفاؤل، فقال بلهجة فيها اغتباط مفتعل:

- " ياسلام !!" كم ستكون رائعة بحضور مليحة العرب.

فقال أنيس:

- لدى إحساس بأنها ستصل فجأة غدا أو بعد غد.

ولم يعرف ممدوح مصدر هذا التفاؤل الذي سيطر على صديقه حتى جعله يتوقع وصول منال بين يوم وآخر في وقت غدت فيه استحالة عودتها إلى ديجون شبيهة باستحالة وصول خيول هشام خلف إلى منابت الزيتون !! .

ولم يعلق ممدوح بشئ فاكتنف مسيرتهما الصمت.

وفجأة توقف ممدوح وقال وهو يضع يده على كتف أنيس:

- انظر إلى النافذة التي يخرج منها الضوء. إنها نافذة الحجرة التي كانت تسكنها هدى نصراوي.

فقال أنيس دون اكتراث:

- نعم. ولكن هدى تخلت عنها منذ أن سافرت إلى لبنان.

فقال ممدوح:

- ولكنها ظلت مقفلة حتى يوم أمس.

قال أنيس:

- على أية حال. لن تظل مقفولة إلى الأبد لابد من تأجيرها لشخص أخر.

فقال ممدوح:

- قد تكون هدى نصراوي عادت من لبنان واستعادت حجرتها.

فرد أنيس محاولا أن يثني صديقه عن عزمه:

- هل هذا معقول. لقد سافرت هدى بنية الاستقرار نهائيا هناك. ثم إنها ليست اللحظة المناسبة للعودة إلى ديجون، فالحرب التي ذهبت للمشاركة فيها لا زالت بعيدة عن نهايتها.

فقال ممدوح:

- يمكن أن تكون قد ملت الحرب فعادت إلى "ديجون".

قال أنيس:

- ولكن ليس بمثل هذه السرعة.

فقال ممدوح وهو يزم شفتيه:

- " أنت عارف" أحيانا يتغير رأي المرأة بسرعة لا تتصورها.

ورغم أن أنيسا لم يبد مقتنعا بمثل هذا الرأي إلا أنه قال:

- ولكن من غير المعقول أن تأتي هدى نصراوي إلى ديجون وتقبع في حجرتها دون ان تتصل بنا.

قال ممدوح:

- سأصعد حالا وأستجلي الأمر.

وصعد ممدوح شعراوي بينما ظل أنيس واقفا في مكانه، وكأن الأمر لا يعنيه أكثر من ممدوح.

وأحس ممدوح - وهو يلتفت خلفه فيرى أنيسا واقفا في مكانه ينظر إلى الجهة الأخرى - بأن صديقه يتردد في الصعود خشية أن تكون هدى نصراوي هي الموجودة فعلا في الحجرة، وأنها تحمل أخبارا غير سارة.

وأطال ممدوح البقاء، ولم يطق أنيس الانتظار فصعد بدوره متباطئا.

كانت الأصوات تقترب منه وتزداد وضوحا كلما صعد دورا. حتى صار أمام باب الحجرة المغلقة، فسمع ممدوحا يقول: ولكن يجب أن تخبريه بحقيقة ما حدث. إنه ينتظرها. ياليتها... ولم يطق أنيس الاستمرار في الاستماع فأخذ يطرق الباب. وانفتح الباب فوجد نفسه أمام هدى نصراوي. بينما استدار ممدوح شعراوي متجها نحو النافذة، ففتحها وترك رأسه يتدلى خارجها ولم يعد يسمع ولا يرى ما يجري خلفه.

ومرت دقائق وهو على هذا الوضع فسحب آخر نفس من سيجارته وألقى بعقبها، ثم أخذ يتابعه بنظراته وهو يهوى من الدور الرابع محدثا ـ لدى اصطدامه بالأرض- شررا صغيرا سرعان ما ابتلعه الظلام.

واقترب ممدوح من أنيس ببطء فنهض هذا ـ الذي كان مستندا بكلتا يديه على حافة المنضدة ـ واستدار نحو ممدوح فلما التقت نظراتهما خيل لممدوح أنه لم يسبق له أن رأى هذا الرجل من قبل. فقد انقلبت بشرته القمحية زرقاء فاحمة. وجحظت عيناه الواسعتان وكأنهما قد توقفتا عن الرمش، وانطبقت شفتاه على بعضهما، وكأن فكه العلوي قد تجاوز فكه

الأسفل. كان رجلا غريبا لا يشبه هذا الذي عرفه ممدوح منذ سنوات في "ديجون".

ضمه ممدوح إليه بقوة وقد خيل إليه أنه سيسقط تحت الصدمة، ولكن بعد فترة من الصمت ـ ظن ممدوح أن الزمن قد توقف خلالها ـ قال أنيس بصوت متهدج لم يسبق لممدوح أن سمعه:

- إن الجو خانق دعنا نخرج.

وانسل أنيس من بين ذراعي صديقه وسار متثاقلا مطأطئاً رأسه متجها نحو الباب، وتبعه كل من هدى وممدوح بنظراتهما.

وراود ممدوحا إحساس أشبه باليقين بأنه حتى لو تلاطمت أمواج الثورة في هذه اللحظة بالذات وأزبدت فوق كل أرض العرب لما استطاعت أن تغسل أحزان هذا الرجل الذي يسير منحنيا باتجاه الباب. وما لبث ممدوح أن لحق به. بينما ظلت هدى نصراوي واقفة لا تدري ماذا تفعل. هل تقفل الباب خلفهما وتمكث في حجرتها؟. ولكن الرغبة انعدمت لديها في البقاء بين جدرانها الاربعة. أم تقفل الباب خلفها وتنزل للحاق بهما ؟ ولكن إلى أين؟ . وفجأة وجدت يدها اليمنى تنقل السيجارة إلى يدها

اليسرى ثم تمتد بعفوية إلى مقبض باب الحجرة فتقفله. فلما سمعت صوت انغلاق الباب خلفها هبطت متباطئة خلفهما.

وخيل إلى ممدوح - وهو يرى أنيسا يهتز أمامه هابطا درجات السلم - أن صديقه يصعد عكسيا بسرعة مذهلة سلم سنوات عمره. فبدا له رجلاً سحقته مرارة التجربة، وخانت الظروف عواطفه وخيبت آماله بلاد العرب. ولم يدر ممدوح شعراوي لماذا برزت في ذهنه فجأة - وهو يهبط السلم خلف أنيس- ذكرى ذلك اليوم الذي سرح فيه وأعفي من قيادة فصيل المدرعات الذي قاده إبان حرب أكتوبر، فقفل راجعا إلى القاهرة، وحينما عبر القناة غربا شاهد قوافل الدبابات الإسرائيلية وهي تقتلع بجنازيرها بقايا طمي دلتا نهر النيل.

وأرجع ممدوح شعراوي توارد هذه الذكرى إلى إحساسه بأنه هو وصديقه - العائد من جبال ظفار - كلاهما ذلك الرجل الذي انتهت معركته قبل أن تحقق أهدافها.

أخذ ثلاثتهم يهبطون عبر سلالم بيت الطلبة التي تبدو خالية من الحركة في تلك الساعة المتأخرة من الليل. كان أنيس في مقدمتهم يهبط درجات السلم الأخيرة. ويتبعه عن قرب

ممدوح شعراوي، بينما ظهرت خلفهما في منتصف السلم هدى نصراوي هابطة بخطوات مترددة. وفيما عدا هؤلاء الثلاثة لم يكن أحد آخر في ديجون يعرف حقيقة ما حدث "لمليحة العرب" هل قتلت في تل الزعتر؟ أم خرجت ناجية وفضلت السفر مع والدتها والإقامة في بلد خليجي؟ هل قتلتها رصاصات طائشة في أحد شوارع بيروت؟ أم ترى قد توفيت والدتها وأصبحت هي محظية في قصر أحد المشائخ أو الأمراء؟ ولربما درات في رؤوس ـ ما عدا هؤلاء الثلاثة تساؤلات مماثلة كثيرة . وخرج ممدوح شعراوي خلف أنيس كامل فوجده واقفا على يسار المبنى الواقع على حافة السهل الاخضر في منطقة يغمرها ضوء خافت تعود أن يتمشى فيها سويا مع منال. بينما كان شاخصا ببصره نحو الشرق عبر الظلام الامتناهي. والتحق بهما شبح ثالث، وتناهى إلى سمعهم جميعا صوت البوهيمي "كلود رينيه" مرددا أغنيته التي لا يغيرها أبدا لكي يعلم الجميع بأنه قد نسى ـ كعادته ـ أن يبكي حتى في تلك الليلة أيضا. ووضع ممدوح يده على كتف أنيس فاستدار هذا فلما صارا متواجهين قال ممدوح بصوت واهن:

ـ ولكنك لم تبك.

متاح للتحميل ضمن مجموعة كبيرة من المطبوعات من صفحة

مكتبتي الخاصة

على موقع ارشيف الانترنت

الرابط

https://archive.org/details/@hassan_ibrahem

تنفيذ الطباعة والتجهيزات الطباعية

دار قباء الحديثة

للطباعة والنشر والتوزيع - القاهرة

جمهورية مصر العربية

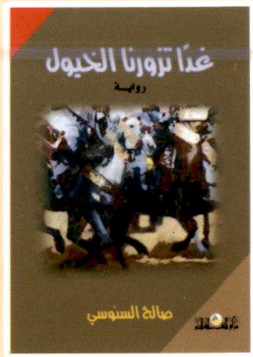
16 عمارات العبور - شارع صلاح سالم - مدينة نصر

تليفاكس 02/22621365 - تليفون 02/24025777

محمول 0123140315

E-mail: modern_qubaa@hotmail.com

http://www.qubaaalhadetha.com



■ يقدّم مجلس الثقافة العام للقارئ الكريم مجموعةً من إصداراته الجديدة المتنوعة ، التي تتضمن أجناسًا أدبيةً وفنيةً ، تهدف إلى دعم الكتاب ونشر المعرفة وتنمية الذائقة الجمالية وإثراء الحركة الثقافية .. آمِلاً إسهامًا جادًا يضيف إلى الحراك الثقافي رصيدًا مميزًا وفضاءً جديدًا للمعرفة وللحياة.

مجلس الثقافة العام